



ابن سناء الملك

تأليف
سيدنا الملك



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

أعلام العرب

٩٦

ابن سناء الملك

بقلم

محمد إبراهيم نصر

الهيئة العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لقد ظل « ابن سناء الملك » زهاء ثمانية قرون مجهولا من قراء العربية ، لا يعرفون من ديوانه غير قصيدة كانت تختار لطلاب المدارس من نماذجه الجيدة فى الفخر ، وهى : -

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغـيرى يهـوى أن يعيش مخلدا

وقد بذل المؤرخون جهدا يذكر فيشكر فى ازالة الغموض عن هذه الفترة الحافلة بالأحداث السياسية ، والتغيرات الاجتماعية والفكرية .

أما حظ هذه الفترة من كتب الأدب ومن الدراسة الأدبية المعاصرة ، ومن نشر مغاليقها ودواوينها فقليل ، ولذا لا تصدر الأحكام الأدبية عليها وافية كاملة . .

ولقد كانت دراستى لابن سناء الملك ، ونشر ديوانه احدى الدعائم التى يعتمد عليها فى التعرف على أدب هذه الفترة .

وقد يكون لهذه الدراسة فى هذه الظروف وفى تلك الأحوال

أهميتها لأنها تروى لنا صورة عن ماضيها تشبّه إلى حد كبير ما نحن فيه اليوم . . . فهي قصة لعصر من عصور الافاقة واليقظة . . . فلقد عاث الصليبيون في الارض فسادا وقتلا وانتهابا ، حتى قويض الله لهم البطل الأيوبى « صلاح الدين » فوحّد العرب ، وجمع شملهم ثم لقي بهم أولئك الصليبيين فبدد شملهم ، وكتب بالسيف نهايتهم ، وعلم الأجيال التى أتت من بعده أنه لا عز للعرب اذا اختلفوا وتفرقوا ، ولا بقاء للأجنبى الدخيل اذا اتحدوا واثقفوا .

وكان ابن سناء واحدا من الشعراء المعدودين الذين تغنوا ببطولة « صلاح الدين » ، وبعث الحماسة فى نفوس المسلمين ، وأثار الحمية والشجاعة فى قلوب المحاربين ، لذا كان الى البيت الأيوبى أثيرا ، وإلى نفوس وزرائهم وأمرائهم قريبا ، فلا غرابة أن يكون علما من أعلام عروبتنا ، ورائدا من رواد نهضتنا تجذبنا آثاره ، ويستهوينا روض أشعاره ، وقد سرنى أن المشرفين على الهيئة يتيحون بنشر هذه الدراسة فرصة لقراء الأعلام على اختلاف ثقافتهم - كى يطلعوا على شاعر التقت عنده الشعراء ، والتف حول أدبه الأدباء ، وفى ذلك النشر ارهاص لصدور الديوان الذى قمت بتحقيقه ، والذى يجمع شعر الشاعر كله .

وقد يكون لهذه الدراسة أهميتها فى هذا التوقيت الزمنى الذى يجتمع فيه ملوك العرب ورؤساؤهم ليتدارسوا فيه موقفهم من ذلك العدو الذى يتربص بهم الدوائر ويتخذ من فرقته سبيلا لتحقيق أهدافه ومطامعه . وفق الله العرب لتوحيد الكلمة وجمع الشمل والله الموفق والهادى سواء السبيل .

محمد ابراهيم نصر

عصر ابن سناء الملك

(٥٥١ هـ - ٦٠٨ هـ)

حال مصر والشام فى أخريات العهد الفاطمى :

كان العصر الفاطمى الثانى الذى بدأ فى أواخر عهد المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) بداية ضعف هذه الخلافة ، وظهور الوزراء العظام الذين استأثروا بالسلطة وتنازعوا الحكم ، وساعدوا على ارتباك البلاد ووقوعها فى خضم من الفتن والثورات والقتل .

وكانت الوزارة كلعنة الفراعنة تصيب من يسعى إليها فلا يلبث أن يقتل أو يفر أو يموت ، ولم يترفع الخلفاء ولا الوزراء عن تدبير المؤامرات ، وارتكاب جرائم القتل ، وحسبنا أن نعلم أنه منذ وثب بدر الجمالى على كرسى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر

حتى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية - ولى الوزارة
ما يقرب من أحد عشر وزيرا قتل منهم سبعة وزراء ، ومات اثنان
وفر الباقون .

ولقد كان فى مصر أربع قوى تتنافس على الحكم والسلطة :
أولها : قوة المغاربة الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية فى بادئ
الأمر ، **ثانيها** : قوة السودانين : الذين وفدوا الى مصر كجنود
مرتزقة حين استعان بهم الحاكم بأمر الله على المصريين السنيين فهجموا
على المدن ، ونهبوا الأسواق وظلوا خطرا على الدولة حتى بدد
صلاح الدين الأيوبي شملهم وكتب بالسيف نهايتهم فى وقعة
العبيد .

ثالثها : قوة الأتراك وقد كانوا خطرا على الدولة تمكن أمرهم ،
واستبدوا بالسلطان وخلعوا الخلفاء ودبروا المؤامرات لقتلهم .
اشتبكوا فى قتال مرير مع المغاربة حيناً ، ومع السودانين حيناً
آخر .

رابعها : **قوة الأرمن** : وقد قدم بهم الى عكا « بدر الجمالى »
عندما استغاث به الخليفة « المستنصر » ليخلص البلاد من الفتن
والقلاقل ، فاشتبكوا تارة مع السودانين ، وأخرى مع الأتراك ،
وخلا لهم الجو حيناً ، فاستبدوا وظلموا ، واستطاع « بهرام
الأرمنى » والى الغربية فى عهد الحافظ بالله أن يحاصر القاهرة فى
سنة ٥٢٩ هـ . وأرغم الخليفة على أن يلى الوزارة على الرغم من عدم
دخوله الاسلام . وظلت مصر نهبا لهذه القوى ، وتلك المنازعات
بين هذه القوى الأجنبية الدخيلة حتى قضى على الخلافة الفاطمية
نهائيا على يد البطل « صلاح الدين الأيوبي » فى سنة ٥٦٧ هـ .

الصراع بين المذهب الشيعى وبين المذهب السننى :

ولقد كان من بين الظواهر الهامة التى فرقت العرب ومزقت شملهم ذلك الصراع الحاد بين المذهب الشيعى الذى دان به الفاطميون ، وتعصبوا له ، وبين المذهب السننى الذى التزمت به الخلافة العباسية والتفت حوله ، وأدى هذا الصراع الى الحرب بالدعاية حيناً والى التقاء الجيوش حيناً آخر ، وتم للفاطمين (١) بسط نفوذهم وسلطانهم على معظم البلاد الساحلية وبيت المقدس ، ثم حلب ، غير أنهم لم ينعموا بحكم البلاد الشامية طويلاً بل لم تنعم هذه البلاد نفسها بالاستقرار والأمن والسلام فظلت مسرحاً لهذا الصراع الحاد بين المحاولات الفاطمية من جهة والحركات الاستقلالية التى تنبعث أحياناً داخل البلاد ، أو القوات العباسية أو القوات السلجوقية - من جهة أخرى ، وكانت الحرب سجلاً بين الفريقين فأحياناً يتقدم السلاجقة حتى يهددوا مصر نفسها بالغزو كما حدث فى سنة ٤٦٥ هـ حيث تمكن السلاجقة من فتح الرملة وبيت المقدس ثم فتح دمشق سنة ٤٦٧ هـ وتقدمت جيوش السلاجقة صوب مصر سنة ٤٦٩ هـ ثم يكر الفاطميون من جديد فى وزارة بدر الجمالى سنة ٤٨٢ هـ فيستعيدون سلطانهم على معظم المدن الساحلية ..

الحروب الصليبية :

وقد هيا هذا الخلاف بين القوى الاسلامية ، وهذا الصراع العنيف الدامى - الفرصة أمام جحافل الغزو الصليبي فدنسوا بأقدامهم أرض الشرق ، وكونوا لهم امارات صليبية فى قلبه

(١) ابن خلدون : ٤ : ٩٠ ، اخوان الصفا من ١٥ - ١٨ .

بعد أن قتلوا آلاف المسلمين ومثلوا بهم شر تمثيل ، فبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودخلوا المساجد بخيلهم ورجلهم ولم تستطع قوى الفاطميين الثبات أمامهم على الرغم من القوة العظيمة التي جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ لأن الخلافة العباسية أثبت أن تمدها للخلافة الفاطمية في اتخاذ موقف موحد أمامهم .

سقوط الدولة الفاطمية :

ولم تعد الخلافة الفاطمية في حال تساعدتها على استعادة نفوذها في بلاد الشام فاضمحل سلطانها منذ أواخر القرن الخامس الهجري بحيث لم يعد في مقدورها أن تحافظ على سيادتها فيما وراء الحدود المصرية (١) .

هذه عجالة سريعة لما كانت عليه الأحوال السياسية في مصر والشام في أخريات العهد الفاطمي .

٢

الحياة الاجتماعية :

ولقد حرص الفاطميون أشد الحرص وأقواه على دعم سلطانهم ، ونشر مذهبهم ، وستر عيوبهم ، وانعكست صورة هذا الحرص على حياتهم الاجتماعية ، وتقاليدهم المرعية ، وتجلي ذلك واضحا في :

الأعياد والمواسم وحفلات اللهو : فلقد كثرت الأعياد والمواسم والحفلات الدينية في هذا العصر كثرة ملحوظة ، واهتم الفاطميون

(١) النفوذ الفاطمي : ٦٨ ، ٦٩ .

بالحفاوة بها فى كثير من الأبهة والعظمة ، وفى ليلة عيد الفطر
تفرش البسط الثمينة الضخمة بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس
الخليفة ، وتمد عليه الموائد ، وتنشر عليها صنوف الفطائر والحلوى ،
وتلبس المساجد حلة من الضوء والزينة ، وعندما ينتهى الخليفة من
صلاة الفجر يعود الى مجلسه ، وتفتح أبواب القصر والايوان على
مصريعها ، ويسعى الناس من جميع الطبقات لينعموا بمشاهدة
الخليفة ، ويتناولوا الطعام بمشهد منه ، ومن وزرائه (١) ، وعند
بزوغ الشمس يتجه ركب الخليفة فى موكب حاشد الى الصلاة ،
وبين يديه العسكر من الأتراك والديلم ، والعزيرية ، والاشييدية
والكافورية ، كل فى زيه . وأهل العراق يخرجون بالديباج
والسيوف . والمناطق الذهبية . وبين يدي الخليفة يخرج بالمظلة المثقلة
وعليها رجال مدججون بالسلاح ويخرج الخليفة بالمظلة المثقلة
بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام فيصل على نحو ما كان
يفعل الرسول ثم ينصرف ، واذا عاد من الصلاة وجد سماطا آخر
فيجلس عليه وأمامه مائدة من الفضة يقال لها « المدورة » وتوضع
عليها أواني الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام وقد نثرت عليها
الأزهار والرياحين ، وكان يجلس اليه رجال الدولة والعظماء .

أما فى عيد الأضحى ففضلا عن ذلك كله يخرج الخليفة الى
المذبح فى أيام العيد الثلاثة ، ويشترك فى اجراءات النحر ، واذا
انقضى اليوم الثالث من أيام العيد يمنح الخليفة وزيره ثوبه الأحمر
الذى كان يرتديه يوم العيد (٢) .

ومن أشهر الأعياد والمواسم ليالى الوقود الأربع ، وهى أول
رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، وفى هذه المواسم تضاء جميع

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ : ٩٧ .

(٢) صبح الاعشى : القلقشندي ج ٣ : ٥١١ ، ٥١٢ .

المساجد ، وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الأضواء والزينات ،
واستمع الى قول ابن سوار الشاعر يصف أحد الجوامع مع ليلة
النصف : -

ما أحسن الجامع فى ليلة النص
ف وقد لاح عليه السرور
وأشبهت زهر قناديله
كاسات راح تلامى تدور
وقارن النسر الثريا به
وقابل البدر هناك البدر (١)

وكان الناس يخرجون الى الجامع الأزهر الذى تضاء حافته
بالمشاعل ، ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء
برئاسة قاضى القضاة (٢) .

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح
والسرور الا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام تعطل فيه
الأسواق ، ويخرج المنشدون الى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى
رثاء الحسين ، وفى نفس اليوم يقام سماء الحزن فى بهو بسيط ،
وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجن ويحضره الخليفة ملثما
ومرتديا ثياب الحزن القاتمة (٣) .

وقد عنى الفاطميون كذلك ببعض العادات التى تسربت اليهم
من سبقتهم كالاحتفال بوفاء النيل الذى اتبع منذ قدماء المصريين
فقد كان يحتفل به بحضور الخليفة الذى يركب جواده المطهم وفى

(١) فوات الوفيات : ج ٢ : ٤٣٦ .

(٢) الخطط : للمقريزى : ج ١ : ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٣) المقريزى : خطط : ج ١ : ٣٤١ .

ركابه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المظهمة ويلبسون الدروع
المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بالديباج المطرز باسم
الخليفة ، ويليهم صفوف من الجمال عليها هوداج مزركشة تقودها
طائفة من الجند (١) ، وعندما يصل ركب الخليفة مقياس النيل
بالروضة ومعه رجال حاشيته والوزراء يصلى ركعتين ثم يضع
الخليفة بيده الزعفران والمسك فى اناء خاص ويسلمه لصاحب بيت
المال الذى يقدمه للموظف المختص بالاشراف على المقياس فيعطر
المقياس به بينما يقرأ المقرئون آيات الذكر الحكيم .

وكان الخليفة فى كل مناسبة من هذه المناسبات يمنح
الشعراء والأدباء والوزراء خلعه وحلله الحريرية الخالصة المزركشة
بالذهب (٢) مشفوعة ببطاقة رقيقة ذكر المقريزى صورة
منها (٣) .

هذه بعض المواسم والأعياد التى اهتم بها الفاطميون ، والتى
ظل معظمها ينساب عبر الزمن حتى وصل الينا فما زالت القرى
المصرية تقرأ الأدعية فى ليلة النصف من شعبان ، وتقيم الموالد
للصالحين كمولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى ، وقد وقف
الأيوبيون من بعض هذه العادات موقف العداء الشديد ، وتركوا
بعضها يسير مع الزمن ، واستحدثوا بعضا آخر جديدا منها
فحاربوا منها ما كان يتعارض مع المذهب السنى ، ويدعو الى
سيادة المذهب الشيعى والتعصب له كالاحتفال بمولد الحسين ،
ولبس السواد يوم وفاته ، والاحتفال بمولد السيدة زينب ، والحداد

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٦٦٩ .

(٢) الخطط : للمقريزى : ٤١٠ .

(٣) صبح الاعشى : ج ٣ : ٥٠٥ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية للدكتور

محمد جمال الدين سرور : ٢١٤ .

العام والبكاء ولبس السواد يوم عاشوراء . . لقد نظر الأيوبيون الى هذه العادات ، وأمثالها نظرة عداة شديد فأبطلوا منها بالتدرج ما قدروا عليه ، بل انهم كانوا فى يوم عاشوراء يتزينون ، ويكتحلون ، ويخضبون أيديهم بالحناء ، ويوسعون على أولادهم ، فتذبح الذبائح ، وتوقد المطابخ ويلبس الأولاد الجديد من الثياب ، وينعى شعراء الشيعة هذا العمل الذميم ، ويبكون الحسين ، ويسبون من يشمت فيه وفى ذلك يقول الشاعر المصرى أبو الحسين الجزار :-

ويعود عاشوراء يذكرنى
رء الحسين فليت لم يعد
ياليت عيننا فيه قد كحلت
لشامة لم تخل من رمد
ويدا به لمسة خضبت
مقطوعة من زندها بيدى
أما وقد قتل الحسين به
فأبو الحسين أحق بالكمد (١)

وهذا الشاعر نفسه هو الذى داعب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء فكتب اليه ليلة عاشوراء : -

قل لشهاب الدين ذى الفضل والندى
والسيد ابن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد
ان لم يبادر لنجاز موعدى
لأحضرت للهناء فى غد
مكحل العينين مخضوب اليد

(١) فوات الوفيات لابن شاعر : ج ١ : ١٤٨ ، دراسات فى الشعر فى

فقد أعطانا الشاعر بهذه المداعبة صورة لما كان يجرى بين المتعصبين من أصحاب المذهبين ، أصحاب المذهب السننى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهلاء ، وأصحاب المذهب الشيعى الذين كانوا يخرجون للعزاء .

أما ابن سناء فقد وقف من هذا العيد موقف المحايد فلا يفعل فعل الشيعة ، ولا يشارك الأيوبيين فى فرحهم وسرورهم : -

ونظمتها فى يوم عا	شوراء من همى وحزنى
يوم يناسب غبن من	قتلوه ظلما مثل غبنى
يوم يساء به وفيه	كل شيعى وسننى
ان لم أعز المسلم	ين به فانى لا أهنى
أو كنت ممن لا ينو	ح به فانى لا أغنى (١)

وما زالت مصر الى اليوم وخاصة فى قراها تحتفل بيوم عاشوراء ، فيصنعون الحلوى ، ويذبحون الطيور ، وما طبق « عاشوراء » الا أثر من آثار هذا النزاع المذهبى بين الأيوبيين والفاطميين .

عيد الربيع : ومما استحدثه الأيوبيون الاحتفال بعيد الربيع فكانوا يخرجون فيه بالمهرجانات ، ويقيمون الزينات ، ويستعدون له قبل حلوله وهذا التقليد الشعبى استحدث ردا على ما كان يفعله الصليبيون فى عيد الفصح بالقدس ، فقد كانوا يحملون السلاح ، ويسيرون المواكب فى عرض عسكرى عام لارهاب السكان ، فأنشأ «صلاح الدين» هذا العيد مناوئا له يمثل عرضا عسكريا تشترك فيه مدن فلسطين ، ويخرج المسلمون ، وأرباب القوة والفتوة ، ويصعد بعضهم على أكتاف بعض ، وينشدون ، ويهزجون واتسم هذا

(١) ديوان ابن سناء الملك : تحقيق المؤلف قافية النون .

العيد بالطابع الدينى ، كما يتسم « عيد الفصح » بهذا الطابع ،
وانتقل الى المدن الغربية كلها ، وغدا من أجمل أعيادها •

اللهو : أما اللهو فى العصر الفاطمى : فقد انتشر فى عواصم
المدن الكبرى ، واشتهرت فيها أحياء خاصة باللهو والمجون والخلاعة
فى القاهرة كنت تجد بركة الفيل ، وفى دمشق « خان العتيقة »
بظاهر البلد يقول عنه ابن جبير فى رحلته : « انه جمع أسباب
الملاذ ، ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحد ولا يوصف » (١) •

وكثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فأقبل وجوه القوم فى
مجالسهم الخاصة ، ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات ، وكان
معظم المغنيات من الجوارى ، وكان الفاطميون يحذون حذو خلفاء
بغداد ويجارونهم فى أنسهم وطربهم ، فيحكى أن الأمير « تميم بن
المعز لدين الله » اشترى جارية من بغداد تجيد الغناء فغنت له
ولجلسائه حتى طرب ، فقال لها : « تمنى ما شئت ؟ فتمنت أن
تغنى ما غنته فى هذا المجلس ببغداد (أى تعود اليها) فلم يجد
الأمير بدا من الوفاء لها بما طلبت ، وأرسلها الى بغداد •

وكان المستنصر يحب الغناء ويطرب له حتى انه سمع مغنية
بجوار القصر تغنى يوم استيلاء « البساسيرى » على بغداد واقامة
الخطبة باسم « المستنصر » فطرب لغنائها ، وأجزل لها العطاء (٢) •

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء
حيث يجتمع العلماء والأدباء للسمير والأنس ، وسماع النواذر
والفكاهات أو لعب الشطرنج والنرد اللذين نقلوا اليهم من الفرس (٣) •

(١) رحلة ابن جبير •

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٥ : ١٢ •

(٣) الحضارة الاسلامية : ج ٢ : ٢١٤ ، ٢١٥ •

وكان للشعراء مجالسهم الخاصة ، ولهوهم البرىء أحيانا
والخليع أحيانا أخرى ، وأصبح المجون فى الشعر والاستهتار أمرا
شائعا ، ومألوفا بين الشعراء .

ولم يكن ابن سناء فريدا فى ذلك ولكنها روح العصر أملت
ذلك على الشعراء حتى المتصوفين منهم ، قالوا فى المجون مجاراة
لروح العصر حتى لا يكسد شعرهم ، وقد ذكر ابن الوردى نفسه
فقال معتذرا عما كتبه فى المجون والاستهتار واضطراره الى افتتاح
قصائده بالغزل فى المذكر لتروج أشعاره وتنتشر فيقول :

أستغفر الله من شعر تقدم لى فى المرد قصدى به ترويح أشعارى
ويقول فى موضع آخر :

ما	المرد	أكبر	همى	ولا	نهاية	علمى
ولست	من	قوم	لوط	حاشا	تقاي	وعلمى
وانما	خرج	دهرى	كذا	فنفقت	شعرى	(١)

ويرجع السبب فى شيوع هذا اللون من الغزل المالح الى
كثرة سبى الحروب الصليبية من غلمان الفرنج الصباح الوجوه
وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الترك من أصقاع آسيا .

وأصبح من المعانى المطروقة فى الغزل وصف العارض وقد
خط فيه الشعر فبدا سواده الى جانب بياض الوجه ، ومن ذلك قول
أحد الشعراء : (٢)

لقد أثرت صدغاه فى لون خده	ولاح كفى من وراء زجاج
ترى عسكرياً للروم فى الزنج قد بدت	طلائعه تسعى ليوم هياج

(١) ديوان ابن الوردى : طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .

(٢) الجامع المختصر : ج ٩ : ١٤٢ .

أم الصبح بالليل البهيم موشحا حكي آبنوسا في صفيحة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده فسيجه من شعره بسياج

وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة
فلعبت بعقول العامة والسذج كفرقة الحشيشية - وهى من فرق
الاسماعيلية - وكانوا يسقون مريديهم الحشيش ، ويذهبون بهم الى
البساتين ، ويقودون لهم النساء ، ثم يقولون لهم : هذه صورة
مصغرة من جنة الآخرة ، فاذا ما طلبوا العودة الى هذا المكان قالوا
لهم : لا يمكن الا بتنفيذ الأوامر ، وغالبا ما تكون أوامرهم كلها فسادا
وافسادا ، وقتلا ونهبيا ، وتحت هذا الوعد يوجهونهم الى
ما يشاءون (١) .

٣

الحياة العقلية والفكرية

المذهب الشيعى وأثره :

لقد تسرب المذهب الشيعى الى المغرب على يد الامام « ادريس
ابن عبد الله بن الحسن » الذى فر من أيدي العباسيين فى عهد الخليفة
الهادى سنة ١٦٩ هـ ، وأسس الأدارسة فى «موريتانيا» دولة شيعية
سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ولما ذهب «أبو عبد الله الشيعى»
الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة لنشر هذا
المذهب ، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ، واعتنقه
كثير من الأغالبة الذين قامت دولتهم فى تونس سنة ١٨٤ هـ وظلت

(١) الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى : حافظ حمدى : ٢١ .

قائمة حتى استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ ، ومد نفوذ الفاطميين الى أكثر أجزاء المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان (١) .

ولما استتب الأمر للفاطميين فى المغرب طمعوا فى فتح مصر لكثرة خيراتها من جهة ولتوسطها من جهة أخرى ، ولم يجد الفاطميون عنقا فى فتح البلاد ، وسرعان ما وصل المعز واتخذ القاهرة مقرا لخلافته سنة ٣٦٢ هـ . وقد أعطى « جوهر الصقلي » المصريين عهدا التزم فيه باطلاق حريتهم فى المعتقدات الدينية ، وأمنهم على ديارهم وأموالهم . . ولكن الفاطميين تنكروا لهذا العهد ، وتركز اهتمامهم فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى ، فأسندت المناصب العليا الى الشيعيين واتخذت المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية كمسجد عمرو بن العاص ، ومسجد أحمد بن طولون ، والجامع الأزهر ، واهتموا بتعيين أحد كبار المتفقيين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وكان يعرف بداعى الدعاة ، كما كان عالما بجميع مذاهب أهل البيت .

وأمنع الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالآذان بحى على خير العمل ، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء ، وعيد الغدير المعروف بغدير « خم » (وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) ، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير « خم » فى طريقه الى المدينة ، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال : « ألستم

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٥٠ ، ٥١ ، مصر فى

عصر الدولة الفاطمية : محمد جمال الدين سرور : ١٠ .

تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى ! فقال : من كنت مولاة فعلى مولاة ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » (١) .

ويعلق الشيعة على هذا الحديث أهمية كبرى اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب (٢) .

وقد استاء المصريون السنيون كثيرا لنشر المذهب الشيعى ، وأرغموا على المشاركة فى اظهار شعائر الشيعة .

وفى عهد العزيز كان لزاما على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الشيعى واذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل عن وظيفته ، وقد أدى ذلك الى اعتناق الكثيرين لهذا المذهب (٣) .

وبالغ « الحاكم بأمر الله » فى التعصب للمذهب الفاطمى فأمر فى سنة ٣٩٥ هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب .

ثم اتجهت السياسة الفاطمية نحو اللين زمن الخليفتين : الظاهر والمستنصر ، فتمتع السنيون بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم ، ولما تقلد « بدر الجمالى » الوزارة فى عهد المستنصر كان شيعيا مغاليا ، فأظهر روح العداء والكراهية ازاء أهل السنة سنة ٤٧٨ هـ وأمر بإضافة حى على خير العمل الى الآذان ، وأعاد لعن الصحابة على الجدران وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى .

(١) الخطط : للمقريزى : ج ١ ص ٣٨٩ ، ظهر الاسلام : أحمد أمين :

ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) اتعاظ الحنفا : للمقريزى حاشية رقم ١ ص ١٩٥ ، ومصر فى عصر

الفاطميين : ٤٨ .

(٣) الخطط : للمقريزى ج ٢ : ٢٨٦ .

ولقد ظل كثير من المصريين على مذهب أهل السنة والجماعة وساعدهم على ذلك أن الفاطميين تركوا لهم الحرية فى تدريس مذهبهم بل تركوا الفسطاظ حاضرة لهم ، فدرسوا تعاليم الامام « مالك » و « الشافعى » و « ابن حنبل » أما مذهب أبى حنيفة فلم يوافق الفاطميون على تدريسه لأنه مذهب العباسيين .

ولقد كان للتشريعات التى استحدثها الفاطميون فى مصر ، وخاصة ما يتعلق منها بالوراثة أكبر الأثر فى احتفاظ أهل السنة بمذهبهم اذ رءوا فى تلك التشريعات منافاة صريحة لنصوص القرآن ، فقانون الميراث عندهم يجيز للبنت أن تترث كل ما تركه أبواها اذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبه ، وهذا يخالف المذهب السنى الذى يقضى بألا تترث البنت أكثر من نصف الثروة (١) .

وقد غالى دعاة الشيعة فى نشر مذهبهم ، واختلط بالدعاة الفاطميين بعض الدعاة من الفرس ونادوا بالوهية الحاكم ، وأدى ذلك الى الصدام والتحدى لا فى مصر وحدها بل فى كثير من البلاد الاسلاميه (٢) .

وقد روى صاحب النجوم الزاهرة : أن الفاطميين كانوا باطنيين زنادهة ، دعوا الى مذهب التناسخ ، واعتقاد حلول الجزء الالهى فى أشباحهم وقد قال الحاكم لداعيه : « كم فى جريدتك ؟ قال : ستة عشر ألفا يعتقدون أنك الاله » قال أبو المحاسين : وهذا أعظم كفر من النصارى لأن النصارى يزعمون أن الجزء الالهى حل بناسوت عيسى فقط أما هؤلاء فيعتقدون بحلوله فى جسد الخليفة ، وهذا اعتقاد باطل (٣) .

(١) مصر فى عهد الدولة الفاطمية : ٥٣ .

(٢) الادب فى عصر صلاح الدين : محمد زغلول سلام : ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ .

وعلى الرغم من جهود الدعاة الفاطميين فى نشر مذهبهم فانه لم يجد صدى فى نفوس المصريين ، وكان يتأرجح بين الفناء والبقاء حتى كتب الله نهايته على يد « صلاح الدين الأيوبى » الذى حاربه بسلاح العلم فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى ، وأخرى للمذهب المالكى ، وعزل قضاة الشيعة ، واختفى المذهب الشيعى تدريجيا حتى لم يستطع مؤيدوه أن يعلنوا عن آرائهم ، بل ان كثيرا منهم تعرض للأذى والاهانة .

وعلى الرغم من انقراض هذا المذهب بزوال الخلافة الفاطمية الا أنه ترك أثرا واضحا فى الشعراء والأدباء فقد كان الشعراء يمدحون الخلفاء العباسيين أو سلاطين الأيوبيين بالصفات نفسها التى أغدقتها العقائد الفاطمية على الأئمة ، وقد تأثر ابن سناء الملك بالعقيدة الفاطمية تأثرا واضحا فهو حين يمدح صلاح الدين يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف	وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته	فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت الى أن تملك الأرض كلها	ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين صلاح الدين وبين يوسف عليه السلام فى الاسم حقيقة ، ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب ، وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل الا على أساس واحد وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن احياء الموتى معناه نشر الدين ، واحياء النفوس بالعبادة . . ثم يقول ابن سناء فى مدح السلطان على ابن صلاح الدين :

مولى الأنام على هكذا نقلت لنا الرواة حديثا غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى السلطان على متبعا سنة

الشعراء الفاطميين . . وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره ،
 وشاركوه هذا الاتجاه كابن النبيه ، وابن الساعاتي ، وابن مطروح .
 إلا أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا إلى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيه
 أن يلموا بتلك الخصائص . وإنما انسابت اليهم خصائصها
 وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين .

التصوف :

وكان من بين الأساليب التي حارب بها صلاح الدين هذا
 المذهب تشجيع حركة التصوف لما بين المذهب الشيعي والتصوف
 من تقارب في الآراء ، ولقد كانت هذه حركة بارعة فسرعان ما اتجه
 كثير من الناس إلى التصوف والزهد حتى لم ينج منه الأمراء
 والملوك (١) .

ومما يذكر عن الصوفية أن بعضهم كان يذوب وجدا حين
 يستمع إلى نشيد صوفي ، أو معنى من معاني الصوفية الرقيقة فقد
 استمع يوما صوفي يدعى « أحمد بن إبراهيم الداري » مغنيا يغنى
 قول الشاعر :

أعاذلني	أقصرى
شباب كأن لم يكن	كفى بمشيبي عدل
وحق ليالي الوصال	وشيب كأن لم يزل
وصفرة لون المحب	وآخرها والأول
لئن عاد عيشي بكم	عند استماع الغزل
	حلا العيش لي واتصل

فتحرك الصوفية وطربوا ، وطرب الشيخ المذكور ، وتواجد ،
 ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت (٢) .

(١) الكامل : لابن الأثير ج ٩ : ٢٢٨ .

(٢) الكامل ج ٩ : ٢٦٦ .

واشتهرت الدولة الأيوبية بتشجيع حركة التصوف ، فبنوا أماكن للعبادة يقضى فيها المتصوفة كل أوقاتهم ، وتنفق الدولة عليهم أثناء اقامتهم بهذه الأماكن التى كانت تسمى بالخوانق ، وكان من عمل الخانقاه ايواء الغرباء من المسلمين والسماح لهم ، ولأسرهم بالاقامة فيها . وكان المتصوفة يغادرون الخانقاه للصلاة فى المسجد يوم الجمعة فى مشهد رائع يغرى الناس جميعا بالنظر اليهم ، والتبرك بهم فى طريقهم الى المسجد .

وقد أثر عن « نور الدين محمود » أن أصحابه قالوا له يوما : ان لك فى بلادك ادارات كثيرة للفقراء والفقهاء والصوفية ، فلو استعنت الآن بها لكان أمثل ، فغضب نور الدين وقال : « والله انى لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطيء ، وأصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رأي بسهام قد تخطيء وقد تصيب ؟! » .

وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه «نور الدين» ومن المؤكد أن « صلاح الدين » هو أول من أحدث الخوانق بمصر ، فبنى خانقاه « سعيد السعداء » (١) . وقد أصبح التصوف فى هذا العصر تيارا من تيارات الفكر الاسلامى ، ورافدا كبيرا من روافد الأدب كذلك .

وقد جمع التصوف كثيرا من الأفكار الدينية عند الأمم القديمة ، ووفق بينها وبين الاسلام ، كما استعان ببعض الاتجاهات الفلسفية والأخلاقية (٢) ومن أبرز الظواهر الفكرية فى العصر

(١) الادب المصرى فى العصر الايوبى : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) وفيات الاعيان : ج ٥ : ٢١٣ .

الأيوبي معاداتهم لكل الآراء الفلسفية حتى ولو اعتمدت عليها
العقيدة الدينية ، فقد اشتد صراعهم للمعتزلة والأشعرية ولكل
ما يمت الى الفلسفة والمنطق بصلة ، وقد انعكس تيار التصوف
على الشعراء والأدباء وتأثر به ابن سناء الملك وغيره من الشعراء
فظهر في صورة تبرم بالدنيا ، وسخط من تصرف الأحداث ،
واستسلام للقضاء والقدر ، ومن ذلك قصيدته التي مطلعها : -

عز اله العالم وذل ابن آدم

وفيهما ينعى على الناس سخطهم على القضاء والقدر ، وتفسيرهم
كل شيء بالعقل والعقل قاصر على الحكم ، وأن التسليم بالقضاء
والقدر والرضى بهما هو طريق السلام والنجاة ، ويسخر من مدعى
العلم الذين يقولون بقدوم الزمان مع أن فعلهم يحمل دليل البطلان :
وهي اشارات سريعة لبعض معتقدات الفرق الصوفية : استمع اليه
يقول بعد البيت الأول : -

يخاصمون ربهم	والرب لا يخاصم
وحاكموه للنهي	وعنده نحاكم
وقائل لم كان ذا	وقائل لم لا ولم
ومدع بأنه	في العلم لا يقاوم
رأى الزمان حادثا	فقال قد تقادم
وما درى بأنه	بفعله قد صادم

وفى قصيدة أخرى يرجع فيها الى ربه ، ويشوب الى رشده ،
فيخاف الله ، ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ويذكر غرورها وباطلها ،
وأوطاره التي قضاها بها ، وأن جنة الدنيا فانية ، وجنة الآخرة
باقية ، وهى قصيدة رقيقة تجاوب فيها مع تجربته الحقيقية ،
ومشاعره النفسية ، لذا تحس بأسرها للنفس والقلب ، ولو كان له
غيرها فى قوتها وما تحمل من صدق التجربة لكان من شعراء الزهد

دون منازع ، ولصح أن نسلكه فى ميدان شعراء الزهد الكبار من
أمثال أبى العتاهية : استمع الى هذه القصيدة وما فيها من حسن
جرس ، ونغم هادىء رزين : -

قد كان ما كان من جهلى وطفيانى
وجاء ما جاء من نسكى وايمانى
وسر من بعد غم النفس بى ملكى
واغتم بعد سرور النفس شيطانى
فما المفهم بعد النسيك من أربى
ولا المقنع بعد الزهد من شانى
نسيت الفأ بغيلاً ليس يذكرنى
بذكر رب كريم ليس ينسانى
وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى
واخترت طاعة من لو شاء أنشانى
وعفت دنيا تسمى من دناءتها
دنيا والا فما مكروها الدانى

وهى قصيدة تقع فى واحد وثلاثين بيتاً ٠٠ وله عدا ذلك
مقطعات لا تتجاوز خمسة أبيات يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته
للنفس أو عن الدنيا ودنائها ، أو عن الآخرة وتفرغ قلبه لها ،
أو عن الزمان وعدم وفائه ، وهى خطرات تفد الى نفسه عندما تتشبع
من الباطل وتجن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف
مؤلمة من الحياة فيعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعره وأحاسيسه ، وكان
هناك غير المذهب الشيعى والتصوف كمظهرين من مظاهر الحياة
العقلية والفكرية ظاهرة ثالثة كان لها أثر فى تنظيم الحياة العقلية
والفكرية وهى « ديوان الانشاء » ٠٠

ديوان الانشاء :

فقد بلغت عناية الفواطم بديوان الانشاء حدا عظيما لاتساع دولتهم وطموحهم فى بسط سلطانهم ، وكان ديوان الانشاء عندهم أداة الدعاية ومظهر الاعلان ، فهو الذى يذيع مآثرهم ، وينشر فى الآفاق محامدهم ، ويبرز من أفضالهم ما دق أمره ، وما خفى فضله ، ووضعت الدولة الفاطمية نظاما دقيقا لديوان الانشاء ، وحددت عمل كل موظف فيه فرئيس ديوان الانشاء يتسلم المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة ، ويليه فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى يجالس الخليفة ، ويوقع على المظالم ، ويليه صاحب القلم الجليل ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ليعرضها على الخليفة (١) . وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الانشاء ادارة البريد (٢) .

وقد انعكس على الكتابة الديوانية فى هذا العصر بشكل بارز أثر العقيدة الفاطمية فلا تخلو رسالة من رسائلهم من البدء بالحمد لله ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى ، والأئمة من أهل البيت ، ويبرزون فى رسائلهم أن النبى هو جدهم ، وانهم أحفاده ، وكأنهم يردون فى كل رسالة على العباسيين الذين يتهمونهم فى نسبهم . وكذلك كانوا يختمون رسائلهم بالدعاء للوصى على بن أبى طالب ، وللأئمة من ذريته العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون وفيما يفعلون .

كما شاعت فى رسائلهم المصطلحات الاسماعيلية ، والتأويلات الباطنية التى تناسب المقام الذى تكتب فيه الرسالة .

(١) القلقشندى : صبح الاعشى : ج ٣ : ٤٩٠ - ٤٩٢ .

(٢) الخطط : للمقريزى : ج ٢ : ١٤ ، ومصر فى عصر الدولة

الفاطمية : ١٨٧ .

ولقد دفعت الحياة الرخية الى التألق ، فكما تألق الناس فى زيههم ، وطعامهم تألق الكتاب فى فنهم حتى تبلور الفن الكتابى ، وتحددت قواعد الرسالة ، فأصبح السجع مظهرا عاما لدى كتاب الرسائل ، وظل ملتزما بعدهم حتى غالى فيه القاضى الفاضل ، فعرفت طريقة الرسالة البديعية فى العصر الأيوبى « بطريقة القاضى الفاضل » .

كما كثر الاقتباس من القرآن الكريم وتضمنين الرسالة بعض معانيه وآياته ، وأولع الكتاب باستخدام الجناس ، وكلفوا بمراعاة النظر ، والجمل القصيرة فى غالبها التى تتفق فى الوزن والموسيقى وينتقل الكاتب من معنى الى معنى فى خفة وانسياب مما يدل على فطنة الكاتب وقدرته ، كما يدل على تمكنه من صنعة الكتابة ، وأنها تجرى فى دمه وفى عروقه .

وبالجملة فقد أصبحت العناية بالألفاظ فى ذلك العصر ، ورصفها وحسن تنسيقها ، مظهرا أصيلا فى فن الكتابة فى مصر والشام ، وانساب هذا الفن عبر الزمن فلم تتخلص منه الكتابة الا فى عصرنا الحديث .

فى العصر الأيوبى :

وقد تسلمت الدولة الأيوبية ديوان الانشاء منظما ذا رسوم وقواعد ، وكتابته ذات طابع فنى أصيل ، وقد بدأ الاشراف عليه كاتب المعى قدير ، شهرته فى فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبى وقد كتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده (١) ، ذلك هو القاضى الفاضل

(١) شذرات الذهب : لابن العماد ج ٤ : ٣٢٥ .

ذو العبارة الرشيقة والسجع والتجنيس ، والوصف المحكم الدقيق ،
فكأنه مهندس بارع ولذا خطا بديوان الانشاء خطوة موفقة .

والمتطلع للرسائل الديوانية فى هذا العصر يجدها أدق
تعبيرا ورصفا وابداعا أنها فاقت الشعر فى هذا الميدان ؛ ذلك لأن
هذه الرسائل كانت توجه وخاصة فى عهد الحروب الصليبية -
الى مقام الخليفة العباسى تزف اليه بشائر النصر على العدو ، أو
تصف له بلاء الجند فى الحرب ، فكانت الرسالة كأنشودة النصر
التي يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلذا كان الكتاب
يتوخون الجزالة فى اللفظ ، والفخامة فى المعنى ، وذلك بما يتفق
ومكانة الممدوح ، وعلو منزلته بين الناس ، وبخاصة اذا كان الممدوح
هو السلطان أو الخليفة ، وبما يتفق وموضوع الرسالة من قوة أو
رقة أو لين (١) .

وعلى هذا النهج سار الكتاب بعد القاضى الفاضل ، وكان
لزما على من يتولى رئاسة الديوان أن يكون قديرا فى هذا الفن ،
وأن ينحو نحو القاضى الفاضل ، والحقيقة أن أثر هذه الطريقة لم
يصب كتاب الدواوين وحدهم بل تأثر به كثير من الكتاب ، وكتبت
معظم الكتب التى ألقت فى هذا العصر على هذا النمط - ديوانية
أو غير ديوانية - تأثر بها الأسعد بن مماتى . وتأثر بها الوهرانى ،
على الرغم من أنه وفد الى مصر ، ولم تكن له قدرة على الكتابة الجدية ،
فسلك طريق الهزل فقد كتب على لسان بغلته الى الأمير « عز الدين
موسك » أحد أمراء الدولة الأيوبية : « بسم الله الرحمن الرحيم . .
المملوكة (ريحانة) بغلة الوهرانى تقبل الأرض بين يدى المولى عز
الدين حسام أمير المؤمنين ، نجاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : للدكتور عبد اللطيف

قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير ، وسق مائة ألف
بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيل
والبغال والحمير ، وينهى ماتقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام
والتعب فى الليل والدواب نيام ، فقد أشرفت مملوكته على التلف ،
وصاحبها لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف ولا يحل به البلاء
العظيم الا فى وقت حاجتها الى القضييم ، ومعلوم يا سيدى أن البهائم
لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب الى شعر
أبى تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغال التى
تشتغل فى جميع الأشغال .. شبكة من القصيل أحب اليها من
كتاب التحصيل ، وقفة من الدريس أشهى اليها من فقه محمد بن
ادريس ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات ، فان لم يجد الا كتاب
الرضاع ضاع ، ولو قيل له أنت هالك مالم تأكل موطأ ابن مالك
ما قبل ذلك ، وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل ..

فعلى الرغم من ميل الوهرانى الى الهزل الا أنه التزم الطريقة
الفاضلية ، وان كره القاضى الفاضل وأبغضه ، فاستهواه السجع
وأعجبه الطباق ، واصطنع التورية .

أثر هذا المذهب :

لقد أثر المذهب الفاضلى على كثير من الشعراء وبخاصة الشعراء
الكتاب فمالوا الى المبالغة فى استخدام الموسيقى اللفظية ، واختيار
الالفاظ الفخمة ، ذات الجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع ،
وتلاعبوا بالالفاظ تلاعبا ظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ،
وأسرفوا فى ذلك كله اسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن ،
ومال هؤلاء الشعراء الى استخدام البديع من جناس وطباق وتورية ،
وبالغوا فى ذلك حتى ظهر فى فنهم هذا التكلف المصنوع الذى يبعد
كل البعد عن الطبع ، وأصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر ، وأصبح

على كل شاعر أو أديب يطمح فى الوصول الى القصر أن يلتزم هذا المنهج ، ولا سيما وأن القاضى الفاضل وهو الوزير الأول ، وصاحب الحل والعقد فى الدولة الايوبية - قد بالغ فى التزام هذا الفن حتى عرف به ونسب اليه ، وانعكس هذا اللون على الشعراء وتأثروا به كثيرا ، نذكر من هؤلاء «ابن الساعاتى» و «ابن سناء الملك» و «المهذب بن الزبير» و «ابن قلاقس» و «الأسعد بن مماتى» و «ابن النبيه» وغيرهم من شعراء هذا العصر (١) . وان كان بعض هؤلاء الشعراء قد حاول الخروج على هذا المذهب وهجته ، «كالأسعد بن مماتى» الذى لم يكن يميل الى الجناس ، ودعا الى الابتعاد عنه فى الفن ، فهو الذى يقول :-

طبع المجنس فيه نوع قيادة
أو ما ترى تأليفه للأحرف ؟ (٢)

واليك ما كتبه القاضى الفاضل فى مدح العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبى لنتبين مدى انعكاس هذا الفن على الشعر حتى استحال الشعر الى لون من الهندسة اللفظية ، ومطلع هذه القصيدة :-

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا
لكن أحبابنا بالوصل ماجادوا

وفيهما يقول :-

فيهن من شبه الغزلان أربعة
نفر ، وطيب ، وأحداق ، وأجباد
وقد بكت الفنى العشاق أربعة :
صب ، وفرش ، وسمار ، وعواد

(١) خزانة الادب للحموى : ٥١ .

(٢) الحموى : خزانة الادب : ٢١ .

هيهات يصدق منك الظن أربعة
 عهد ، وود ، وأقوال ، وميعاد
 له من الغصن الريان أربعة
 عال ، وياه ، وميال ، ومياد
 ولى من الدهر عما رمت أربعة
 قلب ونطق واخلاد واحماد
 يدبر الملك من عثمان أربعة
 عزم ، وحزم ، وأفكار وأرصاد
 وفيه من صادقات السحب أربعة
 فيض وسيل وابراق وارعاد
 يأوى الى بابك المفتوح أربعة
 ضعفى ولهفى ووراد ورواد

وبهذه الطريقة ، نظم القاضى الفاضل أربعة وأربعين بيتا فى
 نهاية الشطر الأول من كل بيت لفظ أربعة ، وفى بقية البيت توضيح
 هذه الأربعة ، وبهذا استحال الفن عنده الى نوع من الهندسة
 والموسيقى اللفظية ، ولا بن سناء الملك قصيدة فى مدح العزيز عثمان
 بن صلاح الدين ، تأثر فيها كذلك بالفن الفاضلى فى الكتابة ،
 والمغالاة فى البديع وفيها يقول :-

من منصفى من حاكم جائر	أبلج مثل القمر الزاهر
قد كسر الجفن فطار الحشا	ما أفتك الكاسر بالطائر
(يا هجرى) ليت ندائى اذا	ناديته كان (بيا زائرى)
قم نزجر الهم بكأس الطلا	ليلة لاناه ولا زاجر (١)

(١) هذا الشطر من البيت مقتبس من قول وضاح اليمن : فأسقط
 علينا كسقوط الندى ليلة لاناه ولا زاجر .

ولا بن الساعاتي قوله :-

والطير يقرأ والغدير صحيفة

والريح تكتب والغمامة تنقط

فقد اهتم بمراعاة النظر اهتماما منقطع النظر ، ولذلك ترى
« العماد الأصفهاني » يقول : « ان مذهب القاضي الفاضل كالشريعة
المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع » (١)

وكان العماد الأصفهاني يلتزم الألوان البديعية محتذيا الطريقة
الفاضلية كغيره من الشعراء الكتاب الذين التفوا حول القاضي الفاضل
وقلدوه ، وقد كتب رسالة الى القاضي الفاضل وتحدث عنها فقال :
« وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع
والمقابلة ، والموازنة والتوشيع (٢) » . وقد شاع الجناس والطباق
حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر من التزامهما . وأما التورية والاستخدام
فكما يقول ابن حجة الحموي : « ما تنبه لمحاسنهما وتيقظ ، وتحري
وتحرر الا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتطلع من العلوم ، وتضلع
من كل باب ، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي
ذلل منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب حتى
ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه انذين نزلوا ربوع مصر ،
وخفقت رياحهم بالاخلاص في نصره كالقاضي السعيد هبة الله ابن
سناء الملك ، ومن انخرط معه في هذا السلك ، ولم يزل هو ومن
عاصره على هذا المنهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين
باحسان الى أن جاء بعدهم حلبة أخرى (٣) » .

(١) العماد : الخريدة : ج ١ : ٣٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) خزانة الادب : ٥١ .

فى هذه الظروف السياسية ، وتلك البيئة الاجتماعية ، والحياة العقلية والفكرية نشأ «ابن سناء الملك» . وسوف نجلو للقارىء نشأته ، ونميط اللثام عن أسرته وعلاقاته بالوزراء وبالأدباء وبغيرهم فى الفصل القادم .

ابن سناء :

- ◆ مولده
- ◆ نسبه وأسرته
- ◆ نشأته
- ◆ علاقته بالقاضي الفاضل
- ◆ علاقته بالوزراء والأمراء
- ◆ المناصب التي وليها
- ◆ مجالسه ومناداته
- ◆ أخلاقه
- ◆ مذهبه الديني
- ◆ آثاره العلمية
- ◆ وفاته

٢

ابن سناء الملك

(٥٥٠ هـ - ٦٠٨ هـ)

مولده :

فى سنة ٥٥٠ هـ فتحت الدنيا ذراعيها لاستقبال مولود جديد هو ابن سناء الملك ، فقد روى ابن خلكان فى وفياته نقلا عن العماد الكاتب فى فريده : « أنه كان عند القاضى الفاضل فى خيمته بمرج الدلهمية فى دمشق فى الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٥٧٠ هـ فأطلعه على قصيدة لابن سناء جاءت من مصر ، وذكر أن عمره لم يبلغ العشرين ٠٠ » (١) . ونحن نرجح هذا التاريخ لمولده لأنه فى سنة ٥٧٣ هـ عرض ابن سناء فى احدى قصائده بمن مدحهم من الشخصيات البارزة فى المجتمع ولم يلتفتوا اليه فقال :-

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨ .

تكمل فضلى قبل عشرين حجة
فكيف وقد جاوزتها بثلاث

وانفقت عمرى فى مدائح معشر
كموتى ولو أنصفت كن مراثى

وبذلك يكون الشاعر قد حدد عمره ، وتاريخ مولده ، وأنه ولد
فى سنة ٥٥٠ هـ .

نسبه وأسرته :

لقد شب أبو القاسم القاضى السعيد هبة الله بن القاضى
الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك . فى ظل أسرة عرف المجد
طريقه اليها ، ونعمت بالغنى والثروة ، واغترفت من الفضل
والمعرفة ، وكانت موضع التقدير من ذوى المكانة والمنزلة ، فنعم ابن
سناء بما أضفته النشأة عليه ، وكانت سببا فى رفع ذكره ،
وعلو شأنه ، وطالما شكا الى أستاذه القاضى الفاضل حسد أعدائه
وحقدهم عليه ، وتعبيرهم له بأنه لولا أبوه ما كان يدخل دائرة
العلماء ، ويحظى بما يحظى به الشعراء ، لأن أباه فى الوظيفة ، ولولاه
لكان خادما فيها ، وقد أشار ابن سناء الى ذلك فى قصيدة وجهها الى
القاضى الفاضل جاء فيها :-

تقول أعادى لولا أبو كـ لما كنت تدخل ذاك الحرم

ومن ثم نعلم أن والده كان يشغل منصبا هاما ، ولقب الابن
والوالد يشيران الى أنه كان ينظر اليهما من السلطان نظرة التقدير
والاكبار . ويبدو أن والده - فضلا عن منصب القضاء الذى كان
يشغله - كان بالأدب شغوبا ، وبرجاله ولوعا حتى أنه اشترى
نصف نسخة من كتاب «صحاح الجوهري» بما يعادل وزنها من

الدراهم ، وليس ذلك - أيما كان الدافع الا فهما لقيمتها ، وتقديرا
لكنوزها ، فلا عجب أن يكون شاعرنا قد ورث عن أبيه حب الأدب
والولوع به ، لأنه غذى به فى طفولته ، وتنسمه مع كل اشراقة من
أبيه ، ومع كل من يتصل به من عارفه ومحبيه . والى ما عرف به
والده من علو كعب فى الكتابة والادب ، يشير الابن الى ذلك فى
قصيدته النائية التى مطلعها :-

ما هزة الغصن الا ملك هزته
وذلة الصب الا طوع عزته

فيرى أن أنامله اذا امتطت القلم سال على القرطاس درا وجوهرا
لا صنعة فيه ولا تكلف ، بل يرى أنه ينبت روضا وارفا ، تتعرف
على ثمره الشهى قبل أن ينضج :

اذا امتطى القلم العالى أنامله
أبدى الجواهر من مكنون مكنته

وينبت الطرس روضا من أنامله
يكاد يبدو جناه قبل منبته

ما أظهر الله هذا الفضل من بشر
الا وأودع سرا فى سريره

ثم يفتخر بانتمائه الى ذلك الوالد العظيم ، ويعترف بأن المجد
قد تسرب اليه لأنه تشرف ببنوته لذلك الوالد :-

لا تعجب الصد من مجدى فان يدي
لم تبتن المجد الا من بنوته

وفى قصيدة أخرى يفتخر بعلمه ومنزلته ، وذكائه المتقد الذى
يجعل الشمس شرارة اذا ما قيست بناره المتقد ، وذكائه المتوقد

فاستمع اليه يقول :-

وبسطة في علمه لم تزل تبسط عندي حجج الحسد
ورتبة ما فوقها رتبة لأنها أعلى من الفرقد
ونار فهم خلت شمس الضحى شرارة من جهرها الموقد

ثم يرى أن مما يسعد والده أنه كان سببا في طيب أصله وعلو
محتده ، فيقول :-

يكفيك أنى بك يا سيدي
قد طاب أصلي وزكا محتدي

وفى ذلك فخر بنفسه واعتداد بوالده .

فالخلق لما كنت لى والدا
تشهد أنى طاهر المولد

وأننى للدهر مستعبد
وهو لغيرى أى مستعبد

ويبدو أن شاعرنا كان أثيرا لدى والده ، وكان يحب أن يمنحه
الاستقلال الشخصى ويشق فى حسن تصرفه ولذا كان يهبه بعض
ممتلكاته وعقاره ، وبالطبع مثل هذا التصرف لا يتم الا اذا أنس
الوالد فى ولده رشدا ، وحسن تصرف ، فقد وهبه والده قصرا
وحديقة جميلة ، فشكره ابن سناء عليهما ، وأفاض فى وصفهما بما
لا يدع مجالا لوصف فقارن بينها وبين جنة الخلد ، ووجد بينهما
صلة ونسبا حتى أن آدم لو حلها بعد ما أخرج من الجنة لم يحزن
ولم يكمد بل ان الكافر لو طمع فى مثلها يوم القيامة لم يكفر ولم
يعرف الجحود طريقا الى قلبه ، فقد كان فى وسط الحديقة نهر تنعكس
عليه الشمس ساعة الأصيل فتتوهج زرقته ، وتداعب النسمات

العليلة الندية صفحته ، فتفرق بين حبات المياه حتى ليخالها الرائي
برادة من العسجد . وزهرها المتعالى فوق أشجارها حبات عقد ثمين
في جيد فتيات حسان . وقد علت على أغصانه الطيور المغردة التي
كانت تغنى فتعيد الى الذاكرة صوت معبد بن وهب الذي عرف
بجمال الصوت وضرب به المثل في بنى أمية فاستمع اليه يقول
مخاطبا والده :

شغلت عن شكرك عن جنة
تشغلني عن همى الأنكد
لى راحة فيها ولى راحة
تملك أقصى عيشى الأرغد
جنة ملك حين ملكتها
شككت فى أنى لم أخلد
لو حلها آدم من بعد ما
أخرج لم يحزن ولم يكمد
أو طمع الكافر فى مثلها
فى الحشر لم يكفر ولم يجحد
يجكى أصيل الجو فى نهرها
سحالة العسجد فى المبرد
وزهرها يجكى بأشجارها
قلانداً تعلو على خرد
فكم على الأغصان من منشد
بل كم على الأغصان من معبد

لا سيما مذرمتها مقعدا .
ما مثلها في الخلد من مقعد
أقامه الحسن فما مقعد
الا اذا جاره كالمقعد

أما جده : سناء الملك فقد ادعى الصفدى نقلا عن ياقوت الذى أسنده بدوره الى صاحب الوزير جمال الدين الأكرم - أنه كان يهوديا غنيا يسمى « رازن » ثم اعتنق الاسلام ، وكان يشتغل فى تغيير النقود فى القاهرة ، ومات بعد ذلك مورثا ابنه القاضى الرشيد عمليات اقراض النقود ، وعمليات أخرى كون منها ثروة عظيمة ، ويضيف الصفدى الى ذلك أن القاضى الرشيد كان محدود الثقافة قليل المعرفة .

وبمناقشة الصفدى يتضح لنا بعد هذا الادعاء عن الحقيقة والصواب ، فأولا : كيف يتأتى وصف جده بأنه يهودى مع أن والده (أى والد جده) يسمى محمدا . وثانيا : لم نعثر لياقوت الذى أسند اليه هذا القول على ما يؤيد ذلك بل على العكس أشار فى الترجمة التى أوردها لابن سناء بالتقدير والاحترام لكل من أبيه وجده (١) . فجده لم يكن يهوديا ، وانما ذلك كله اتهام وصمه به أعداؤه رغبة فى التشهير به ، والنيل منه ، والخط من شأنه ، وقد كان جده يتمتع بمكانة عليه جعلت شاعرنا يحزن كثيرا لفقده على الرغم من طول عمره فقد مات عن سنة وتسعين عاما فى سنة ٥٨٠هـ ، وقد حرص على أن يسير فى جنازته وهو فى شدة المرض ، وورثه بقصيدة حزينة بلغت تسعة وثلاثين بيتا ، مطلعها :-

(١) معجم الادباء ج ١٩ : ٢٦٥ .

خانت جفونى لما لم تفض بدم
لكن وفى الجسم لما فاض بالسقم

وقد أشار فيها الى حرصه على الخروج فى جنازته على الرغم
من شدة ما يعانیه من المرض حتى لم يستطع السير فحمل على الأعناق
وقد تحسر على أنه لم يكن فى صحته ، اذ لو كان صحيحا معافى
لسار على رأسه أو قدمه :-

خرجت خلفك محمولا كما خرجوا
بجسمك الطهر محمولا على القمم

يا حسرتى اذ دأبى راكبا لهم
وما مشيت على رأسى ولا قدمى

وقد كانت عاطفة الشاعر نحو جده قوية شديدة ، فأحبه حبا
دافقا ظهر ذلك فى حرصه على حضور الجنازة على الرغم مما يقاسيه
من المرض ، كما ظهر ذلك فى شعره حيث صرح بأنه قد حاز الحزن
كله على فقده ، وأنه أولى الأبناء جميعا وأحقهم بهذا الميراث ولا يكون
ذلك الا اذا اتقدت درجة الحب ، وأن الجد كان يخصه بالفيض
الغزير منه :-

قد حزت حزنك ميراثا فكنت به
أولى وأحرى من الأولاد كلهم

وقد انصرف جده الى عبادة الله وطاعته ، وألبر به ، والتزود
بخير الزاد من التقوى للآخرة ، فأطال الركوع والسجود ، وسهر
منتصبا فى عبادة الله :

خمسا وتسعين تسمى فى عبادته
لم تشك من ملل فيها ولا سأم

قد انحنى الظهر وانهدت قوائمه
من الركوع اليه لا من الهرم
سهرت منتصبا لله محتسبا
ومن يرد جنة الفردوس لم ينم
وجنة الخلد بالأعمال تدخلها
لا بالحظوظ كما قالوا ولا القسم
من يعلم الله فيه الخير أستمعه
بشرى السعادة قبل الخلق فى القدم
ومن صفت منه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فوق اللوح بالقلم
يا راحلا وجميل الذكر يخلفه
بقاء ذكرك مسلاة عن العدم

وهذه القصيدة من بين القصائد التى طار ذكرها ، واشتهر أمرها ، وأرسل القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد (والد شاعرنا) يعاتبه فيها ويلوم ابنه لأنه سمع بخبرها من أفواه الشعراء ، وكان يتوقع أن تصله فقال فى رسالة بعث بها اليه « وقد بلغنى حديث المراثية ، ومن العجب أن يبلغنى خبرها من غيركم ، ومن القبيح أن تحوجونى الى أن أطلبها من سواكم ، ولقد تكفى الإشارة » . وقد جاءت هذه الرسالة كاملة فى كتاب (فصوص الفصول) (١) .

وقد كانت منزلة جده فى المجتمع عالية ، حتى أن ابن سناء

(١) فصوص الفصول وعقود العقول : لابن سناء الملك مخطوط بدار الكتب

لم ينس تلك المنزلة بل افتخر بها وأبرزها وجعل قدره ومكانته عالية حتى فى الموت فلن يسوى الموت بينه وبين غيره من الموتى :-

لا تحسبوا كل ميت مثل ميتنا
هيهات هيهات والموتى ذوو قيم

ثقافته - أساتذته :

فى هذه البيئة التى جمعت بين الثقافة والغنى ، والمنزلة والجاه ، نشأ شاعرنا وترعرع ، رعاه والده ، واهتم بتعليمه وثقافته فأحفظه القرآن الكريم على الشريف الخطيب (١) . ثم درس اللغة والنحو فى حلقات « عبد الله بن برى » المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ، وفى سنة ٥٧٠ هـ اتجه الى الاسكندرية ليدرس الحديث على المحدث الحافظ أبى طاهر السلفى (٢) . ولقد كان السلفى صاحب مدرسة يقصدها طلاب العلم ومحبو المعرفة ، والحديث من كل حذب وصب ، وكان الحافظ مثلاً أعلى فى الحفاظ على الدين والتقوى ، واحترام النفس حتى أمه صلاح الدين وجلس اليه كما يجلس سائر التلاميذ ، ووجد فى مجلسه زادا فكريا ودينيا دفعه الى أن يختلف اليه كلما سنحت له الفرصة ، وواتاه الوقت . على هذا الشيخ الجليل تتلمذ ابن سناء الملك ، ووجد عنده خير زاد حتى أحب الاسكندرية وفتن بها ، على الرغم من أنه كان يضيق بالغربة والبعد عن القاهرة وكان اذا ترك الاسكندرية يتركها مغتم النفس كئيب الفؤاد ، وقد مدح أهلها ، ووصفهم بأن غايتهم كسب المعالى ، وهمهم أن ينالوا رضى الناس وثنائهم ، فلا يفعلون الا البر ، ولا يتضجرون من الغرم بل يعدونه مغنما وكسبا ، واستمع اليه يقول : -

(١) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٨٣ .

(٢) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٠٠ .

فهل عندهم أنى نزلت ببلدة
هى الشجر الا أنه بارد الظلم
ترى أهله كسب المحامد فى النهى
وحوز العلى فى البر والغنى فى الغرم
شكرتكم يأهل اسكندرية
لأنكم أنأى الأنام عن الذم
فان أنا واصلت المقام فعن رضى
وان أنا أزمعت الرحيل فعن رغوى
سأحبوكم رق القوافى فأننى
بغير اختلاق مالك النثر والنظم

وقد أشاد بأستاذه السلفى ومدحه بما يمدح الفاطميون به
أئمتهم فجعله كعبة الاسلام يحج اليه فيجد فى رحابه الهدى ، ويجد
فى جنباته العلم والمعرفة فهو علم العلم ، وأبو العلماء ، وهو خير
امام يقصده الطلاب الخيرون فيجدون منه خير مرشد ، وأعظم هاد
وهو بعمله وعلمه وتدريسه يحيى الشريعة الأحمدية ، ويذيع
محاسنها ويثبت دعائمها فى نفوس المسلمين ، وقد صفا قلبه حتى
ليجيب الله دعاءه ، ويسمع ندائه لذا كان جديرا بالحمد والثناء ،
ومنطقه القول الفصل فى كل القضايا فاذا ما احتدم الجدل بين
شياطين الضلال وأذاعوا ما يزيغ القلوب والأبصار جاءت أقواله
ككوكب الرجم ، تبدد زيفهم ، وترسخ الحق فى النفوس ، فاستمع
اليه يقول : -

فجئت الى الاسكندرية قاصدا
الى كعبة الاسلام أو علم العلم

الى خير دين عنده خير مرشد
وخير امام عنده خير مؤتم

الى أحمد المحيي اشرية أحمد
فلا عدمت منه أبا أمة الأمي

حمي بدعاء أو همى بفوائد
فبورك من مازال يحمي كما يهمي

تقوس تقويس الهلال تهجدا
وذاك هلال يفضح اليدر في التم

إذا ما شياطين الضلال تهردت
جدالا فهن أقواله كوكب الرجم

أتيت له مستشفعا بدعائه
يقيل به جرمي ويشفع في اثمى

ويبدو من هذا أن ابن سناء أنس في استاذة أبا روحياً ، وصفاء
نفسيا جذبه اليه ، فهام بالآخرة ، وتجرد من باطل الدنيا ،
وتاب الى ربه وأتاب على يديه ، والتمس الغفران من الذنوب
وحفظ لأستاذة فضله ، ولأهل الاسكندرية جميعهم حبه وبره .

لقد هيا « ابن سناء » نفسه بذلك الرصيد من علوم الفقه
والدين واللغة للعمق في الأدب ، ولذا لم يكن سطحيا في شعره .
وكان ملما ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة في تلك الحقبة ،
فهو يجيد الفارسية ، ويتقنها ، ويشير الى ذلك بقوله في إحدى
قصائده التي وجهها الى القاضي الفاضل :

وعز على العرب أنى حفظ ست برغمى. بعض لغات العجم

وقد استطاع أن ينشد باللغة الفارسية ، ويستخدمها فى كتابة خرجة الموشحات ، وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية استمع اليه يقول فى موشحته التى مطلعها :

فى خديك من صير اللاذ

ثياب الياسمين

الى أن قال :

وخود كما شبت طفلة	كفصن	مايس
أرادت أن تكون خلة	لظهى	كانس
فلمما جنت منه قبلة	شدت	بالفارس
دانستى كى بوسه بمن داد	دها	أنكسترين
أواركوای دست من باسن	ببواسسته	شبين

ومعنى هذه الخرجة : « هل تعرف متى قبلنى ، ان فمها كان شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى اياها » (١) .

والظاهر أن الفارسية كانت منتشرة فى أرجاء الوطن الاسلامى آنذاك انتشار اللغة الانجليزية فى بلادنا الآن ، وبخاصة بعد ترجمة كثير من كتب العلم والأدب عنها ، ونبوغ كثرة من أبناء الفرس فى الأدب والفن والعلم ، مما جعل الآباء المتفتحين يعدون أبناءهم بهذه اللغة الحية ، وكان القاضى الرشيد من الوعى والفطنة بحيث أغرى ابنه وشجعه على تعلم الفارسية .

(١) دراسات فى الشعر للدكتور محمد كامل حسين .

وكان ملما بعلوم الفلك حتى كثرت اشاراته لأسماء
الكواكب والنجوم والأفلاك ، ومنازلها وما يدور حولها من قصص
وأساطير استمع اليه يقول : -

أيا بصرى لا تنظرن الى بصرى
فانى أرى الأحباب فى بلدة أخرى
وما بلدة لم يسكنوها ببلدة
ولو أنها بين السماكين والشعرى

ويقول فى مطلع قصيدته التى يمدح فيها صلاح الدين :

أرى كل شئ فى البسيطة قد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

ثم يشير « الكف الحضيبي » وهو أسم نجم فى السماء ،
ويتحدث عن رصد النجوم ، والمنجمين ، ومنازل النجوم فى
السماء الى غير ذلك مما يدل على ثقافة واطلاع فى علم الفلك الذى
كان من علوم ذلك العصر وأسس الثقافة آنذاك .

علاقته بالقاضى الفاضل :

وكان القاضى الفاضل أثيرا لدى الشاعر لأنه كان له أستاذ
وموجه ، وكان لوالده صديقا محبا ، وكان ابن سناء مدينا له
بشهرته الأدبية ، ومنزلته السنية ، ومناصبه الهامة ، وتوجيهاته
الفنية التى خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره
بعد أن صادف فى بداية أمره من المتاعب ما جعله يعرض بمن
يمدحهم فيقول فى سنة ٥٧٣ هـ :

تكمل فضلى قبل عشرين حجة
فكيف وقد جاوزتها بثلاث

وأنفقت عمرى فى مدائح معشر
كموتى ولو أنصفت كن مراثى

وقد عاونه القاضى الفاضل معاونة تذكر فتشكر ، ذكرها
ابن سناء وشكرها ، وأشاد بهذه الصلة فى كتابه « فصوص
الفصول » حيث يقول : « وهو الغنى وأنا المحتاج اليه ، وهو
المعطى وأنا الآخذ منه ، وهو الاستاذ وأنا التلميذ له والمتعلم
منه » .

ولقد كانت رسائل الشاعر وقصائده تصل تباعا الى القاضى
الفاضل عندما كان فى دمشق ، كما كانت ردود القاضى الفاضل
ورسائله تصل شاعرنا فى انتظام ، وكتاب « فصوص الفصول »
حافل بالرسائل التى أرسلها القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد
والى «ابن سناء» ، وموضوعاتها تدور حول الشاعر ، ورأى
القاضى الفاضل فى قصائده ، وتعليقه عليها ومن تلك الرسائل
نفهم أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين الشاعر صلة وطيدة ،
قواها صلته السابقة بأبيه القاضى الرشيد ، وزادها تأكيدا قرابة
الأدب ونسبه ، وعلى الرغم من أن القاضى الفاضل أعلى مكانة ،
وأرفع منزلة ، وأكبر سنا الا أنه وجد فيه ميلا شديدا الى الأدب ،
وقدرة على الشعر ، لذا رضى أن يكون له موجه ومرشدا ، وكان
فى نقده قصائده رقيقا رقيقا ، يميل الى تشجيعه والأخذ بيده ،
فكان يرى أنه مايقول من قصيدة الا وتكون أحسن من أختها ،
وما يرينا من آية الا وهى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا
الا وقد جمع بين حسننها وبختها وقلما يجمع الحسن والبخت ، ولهذا

قيل : « وقد تمنى المليحة بالطلاق وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق
وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ،
وبالضلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها
هذه بجدتها وجودتها ٠٠ »

وهكذا كان القاضي الفاضل يدفع الشاعر قدما بآرائه
وتقريظه ، وكان لهذا الاتجاه أثر مشكور في تقدم الشاعر
واحرازه قصب السبق والتفوق حتى حسده الشعراء الآخرون
وحقدوا عليه ، وقد اعترف ابن سناء بفضل أستاذه عليه حيث
يقول : « ٠٠٠ انه كثر قليلى ، وسمن هزيلي ، وفخم ضئيلي ،
وأعطاني من المدح ما لا أستحقه ، ومنحني من الوصف ما لا أستوجبه
ورفع أقوالى فوق قدرها ، ودفع لعقائلى فوق مهرها فضلا منه
ومنا ، واحسانا وحسنى ٠٠٠ (١) »

ولقد خص الشاعر القاضي الفاضل بسبع وثلاثين قصيدة
من قصائده المدحية التى بلغت الخمسة والسبعين ، ثم اتجه بما بقى
الى السلاطين كصلاح الدين والعزیز والأفضل ، والعاذل والكاامل
وغيرهم من الملوك والوزراء كالملك المظفر تقى الدين ، والملك
الظاهر غازى والوزير صفى الدين بن شكر ، كما مدح والده
القاضى الرشيد ، والقاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل ،
وشخصيات أخرى كالطبيب اليهودى الرئيس موسى ٠٠

وقد أمكن أن نميط اللثام عن تاريخ أكثر هذه القصائد
وتكشف بذلك عن تطور العلاقة بين الشاعر وبين القاضي الفاضل ،
ففى سنة ٥٧٤ هـ مدحه بقصيدة رائية هنا فيها بمطلع العام
الجديد ومطلعها : —

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر أحسننت الا الى المشتاق فى القصر

وبعد مقدمة غزلية بلغت الثلاثين بيتا خلص الى الممدح ،
فشكره شكر الأرض للمطر ، وشكر سواد العين للنظر ، وبين
فضله وعطفه المتزايدين عليه ، ويبدو أن القاضى الفاضل كان
قد ألحقه بديوان الانشاء فى ذلك الوقت فأشار الى ذلك ، والى
النعم التى غمره بها بقوله : -

دخلت جنة عدن فى الحياة به
فلست أقرأ الا آخر الزمر (١)

وقلت قولوا لأيام مغيرة
غرى المهدد يا أيام بالغير
وصرت ألهو وليل الأمن يشملنى
طورا مع السمر أو طورا مع السمر
قبلت ثغر الأمانى اذ ظفرت به
والثغر يحسن بعد الفتح والظفر

وقد بالغ فى مدحه مبالغة خرجت به عن حدود الصدق
الفنى ، اذ جعل الدهر مفتقرا اليه ، يمد كفه مستجديا بينما يمد
الفاضل لحظة محتقرا اياه ، وقلمه فى يده قدر الله يخط به مصائر
الناس فينفع هذا ويضر ذاك : -

(١) اشارة الى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة رمزا
حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها
خالدين » آية ٧٢ من الزمر .

والدهر مد اليه كف مفتقر

فمد للدهر منه لحظ محتقر

فى كفه قلم ان شئت أو قدر

يصرف الخلق بين النفع والضرر

وفى سنة ٥٧٤ هـ توجه القاضى الفاضل الى بيت الله الحرام فهناه بعودته من حجته الأولى ، وقد صادفت عودته انتصارات «صلاح الدين» على الصليبيين فى «بانياس» واستيلائه على حصونهم ، وأسرهم ملكهم . ومطلع هذه القصيدة :

ما ثناياك لؤلؤ مكنون

مثلها لم تقع عليه العيون

وقد أشار فى هذه القصيدة الى ما امتاز به القاضى الفاضل من حسن الرأى ، وجمال التدبير ، والقوة فى موضع القوة ، واللين فى موضع اللين ، وأشار ببيانته وروعته فى الكتابة ، وأن قلمه قد غلب الحسام المرهف فمنه ترجى المنى ويخشى المنون : -

دبر الملك منه حل وعقد

وتلافاه منه شد ولين

بايعته يد السعادة والبيـ

عة قد كررت عليها اليهين

واصطفاه الرأى الرشيد على العا

لم فهو الأمين والمأمون

واذا خط فى اليراعة خطا

فهو نار تذكو وماء معين

بشبا من ذلك القلم المر

هف ترجى المنى وتخشى المنون

وقد توجه القاضى الفاضل الى حج بيت الله الحرام مرة ثانية
فى سنة ٥٧٦ هـ ثم عاد من مكة مباشرة الى مصر بعد رحلة شاقة
فمدحه الشاعر بقصيدته القافية التى مطلعها :

نعم المشوق وأنعم المعشوق

فالعيش كالخمر الرقيق رقيق

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة تسعة وأربعين بيتا جعل
للغزل منها ثلاثة وعشرين ، ثم انتهى منها الى مدحه بالبلاغة ،
وبلوغ المدى فى الكتابة حتى ليظن أن كلامه تنزيل من التنزيل ،
أو قبس من نور الذكر الحكيم » : -

لولا اعتقادى للشريعة مخلصا

ماقلت ان كلامه مخلوق

كما مدحه بالرياسة الأصيلة فيه ، وبطلاقة الوجه ، والنوال
الطليق وبالتعمق فى الجود حتى لا يستقر المال فى كفيه - كما
كان أبو تمام يقول - وبأن كل من يتوق الوصول الى هذا المستوى
يعجزه ذلك حتى الشمس نفسها .

ورث السيادة كابرا عن كابر

فالعرق فى أفق العلا عريق

معنى الرئاسة فيه بكر لا كهن

معنى الرئاسة عنده مطروق

الحكم فصل والكلام مفصل

والوجه طلق والنوال طليق

متعمق فى الجود لولا جوده
ماكان يشكر فى الورى التعميق
لا يستقر المال فوق بنانه
حتى كان بنانه مخروق
باطالين ذرا علاه توقفوا
ومؤملين ندى يديه أفيقوا
لو رامت الشمس المنيرة شأوه
يوم الفخار لعاقها العميق

وقد مكث القاضى الفاضل بمصر حتى نهاية عام سنة ٥٧٧هـ
ثم غادرها فى صحبة صلاح الدين حيث رافقه فى هجومه على
حلب ، وفى هذه الفترة وجه اليه ابن سناء عدة قصائد منها
قصيدة لامية هنأه فيها بمولد ابنه القاضى الأشرف ويحتمل أن
يكون قد نظمها سنة ٥٧٣ هـ لأنها هى السنة التى ولد فيها
الأشرف (١) ، ثم قدمها اليه مؤخرا ، ومطلعها : —

هلال ولكن السعود منازل
ونهر ولكن البحار جداوله

وفيهما يقول :

فبشراك يامولى الأنام بقدام
الى قمة العليا تطوى مراحل

(١) وفيات الاعيان : ترجمة القاضى الفاضل ج ١ : ٢٨٦ .

أتاك كريم النفس والصحب فالعلا
تسائره والمكرمات تعادله

وأنت مولى لا يرد مراده
وأنى عبد لا ترد وسائله

وما الدهر الا خادم أنت ربه
وما الخلق الا عالم أنت فاضله

وانه ليردد هنا بعد أن مدح المولود وهنأه به مارده فى
مدائحه الأخرى من أن الفضل رب والدهر مربوب ، وأن مراده
لا يرد وهى مبالغة ممقوتة ، بل دأب على أن يجعل نفسه عبدا
للقاضى الفضل ، ولعل هذه الصفات مما شاعت فى مدائح هذا
العصر .

وقد دفع الشاعر طموحه أن يسعى للحصول على جائزة
تقديرية من السلطان « صلاح الدين » (خلعة شرف) وبالطبع
لم يجد غير الوزير القاضى الفضل من هو جدير بالتوسط له
فى تحقيق مطلبه هذا فوجه اليه قصيدة دالية سنة ٥٨٠ هـ
التمس منه أن يحقق وعده ومطلعها : -

شيب فودى رماد نار فؤادى
من رمى لمتى بهذا الرماد

وبعد أن خص الغزل بخمسة عشر بيتا خلص الى المدح
فقال : -

كيف لا يرفع الزمان عمادى
وعلى الفضل الأجل اعتمادى

وقد استعمل هذا المعنى فى الخلوص الى المدح أكثر من مرة ،
ووصفه بالسيادة كابرا عن كابر ، وبأصالة الرأى وسداد
الفكر : -

ما أتته تلك السيادة عن جد
م ولكن أتته عن أجداد
ان يكن معرق الأبوة فى السؤ
دد فالرأى معرق فى السداد

ثم صرح بمطلبه فقال : -

اننى سوف أقتضى منك وعدا
أنت باد به فنعم البادى
مطلب فيه ملبس العز اذ يل
بس ذلا جماعة الجساد
لم تنزل تنبت الرياض ولكن
لا على الروض بل على الأجساد
هو وعد قد كان لى وسؤالى
منك انجاز ذلك الميعاد

ويبدو أن ملبس العز هذا هو خلة شرف ، أو عباءة
سلطانية ، تكون فخر لابسها لأنها هدية السلطان ، ودليل رضا .

وبعد ذلك وصل القاضى الفاضل كثير من القصائد التى
مدح بها « صلاح الدين » فى مناسبات عدة كتكذيبه المنجمين
بانتصاراته وكسره صليب الصليبيوت ، وكسر الصليبيين فى
« حطين » مما سيأتى ذكره عند الحديث على موقف ابن سناء

من الحروب الصليبية وفي سنة ٥٨٣ هـ مدح الفاضل بقصيدتين
هناهما في احدهما يفتح عسقلان أولهما بائية ومطلعها :

سرى طيفه لا بل سرى بى سرايه
وقد طار من وكر الظلام غرابه

وبعد المقدمة الغزلية التى بلغت واحدا وعشرين بيتا خلص
الى مدحه بما هو مألوف من الصفات ، كالمجد والرفعة ، والفضل
والنوال ، واعتماد الناس عليه ، ثم شكا اليه جور دهره وقسوته ،
وصرح بمطالبه وطموحه فقال : -

أمولاي أشكو جور دهر مبرح
تطاول بى لما انتشى بى انتشابه

أتانى لكن أين منى رجوعه
وأقبل لكن أين منى ذهابه

قسا قلب دهرى بعد أين ألقته
ومن لى بدهر لا يخاف انقلابه

ولم يشر فى هذه القصيدة الى فتح عسقلان ، لا من قريب
ولا من بعيد ، ولكنه أشار الى ذلك فى قصيدته الرائية التى
مطلعها : -

باتت معانقتى ولكن فى الكرى
أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

فبعد أن انتهى من المقدمة الغزلية التى خصها باثنين وثلاثين
بيتا مدحه بما هو مألوف من الصفات ، ولكنه زفها اليه فى أجمل
ثوب وأزهى عبارة فهو يقرى ضيوفه شعاع النبر الأحمر ،
والقضاء يسعى لخدمته ، والأفق داره ، والكواكب معشره ،

وجعله يفوق الملوك لأن اسمه الفاضل ، وجعل بلاغته تغل حد
الحسام ، ثم أشار بعد ذلك الى كسر الصليب ، وتحويل الكنيسة
الى مسجد :

كسر الصليب سميّه من رأيه
فسل العدا من كان أصلب مكسرا

ولقد أقر الله عين نبيه
بمظهر جعل الشّام مطهرا

مازال أو جعل الكنيسة جامعا
والأنبل المخفوض منها منبرا

فتح الشّام به وقال زمانه
ان كنت فاتحه فلن يتغيرا

الشام دارك لو أردت أخذته
بالارث عن آبائك الشّيم الذرا

وقد أجاب الفاضل على هذه القصيدة بكتاب أورده ابن سناء
فى كتابه (فصوص الفصول) جاء فيه : « ووصل كتاب القاضى
السعيد وقصيدته ووقفت من قصيدة القاضى السعيد على أدوية
للشفاء ما كانت فى قدرة الأطباء ، ونسخ استعملتها القلوب
فعادت بصحة الأعضاء ، فجاءت والعافية فى قرن ، ورخصت
ما أبقت العلة من درن . وقامت بينى وبين الحمى فوفرت هذيانها
وتلت علينا آيات محاسن عرفت الحمى مع اساءتها احسانا ،
فنكصت على عقبها ، ودخلت فى حسها ، وكأنا كانت فى الحقيقة
ماء عذبا صافيا ، ألقى على نارها فسبقتها الى حطبها ، ولقد أتاه
الله وله الحمد فصل الخطاب وألان له ما ألان لصاحبه من صم الحديد

الصلاب ، ولو أدركتها فتليت عليه ، لتلابها مرامر المحراب ، فما أرخص وما أغلى ذلك البياع ، وما أشد وما أسد ذلك المتاع :

انا بعثناك نبغى القول من كتب
فجئت بالنجم مصفودا من الأفق (١)

وقد تمكن القاضى الفاضل من الحصول له على خلعة شرف من الملك الناصر « صلاح الدين » تلك التى سعى اليها وشغل بها ، وكتب الى القاضى الفاضل ملحا ومصرحا بطلبها بل ومدح الملك الناصر وطلبها فى قصيدتين من شعره ، وهذه الخلعة مرتبة أدبية ، ومنزلة اجتماعية ، ترفع قدر الشاعر بين الشعراء ، ولعلها أشبه بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية التى يمنحها الأدباء والمفكرون والتى تدل على أن الحائز عليها قدم خدمات سنية للدولة فكوفىء عليها أجل مكافأة ، ولهذا حفظ ابن سناء هذا الجميل لأستاذه الفاضل ومدحه بقصيدة حائية مطلعها :

راحت وحق الله روحى بين المليحة والمليح

وأشاد فيها بتلك الخلعة

وكسوتنى خلعا هزأ

خلع على خلع أتت

لولاك لم يعلم بأشعا

وجيل رأيك حين صر

ح جاء بالجود الصريح

ولنقف قليلا عند قوله : لولاك لم يعلم بأشعارى .. فهل هذا اعتراف من الشاعر بقصور شعره عن أن يصل الى السلطان « صلاح الدين » لولا مساعدة القاضى الفاضل ؟ أم أنه اقرار

(١) فصوص الفصول : الفصل ٤٣ ، ٤٤ .

بالأمر الواقع لأن قصائد الشاعر فى مدح الملك الناصر كانت تسعى إليه عن طريق القاضى الفاضل ؟ أم أنه تواضع الشاعر ومجاملته القاضى الفاضل ، ورغبته فى اظهار فضله ، واعلاء شأنه وتجسيم الدور الذى قام به فى مساعدته وعونه ؟

الواقع أن التواضع والرغبة فى الإشادة بالقاضى الفاضل هى التى دفعت الشاعر الى هذا القول لأنه لا يقل جودة عن شعراء عصره ان لم يفقههم ، ولأن صلته بالقاضى الفاضل وعمق هذه الصلة هو الذى يدفعنا الى هذا الترجيح .

وبعد أن استولى « صلاح الدين » على بيت المقدس قام ابن سناء بزيارته سنة ٥٨٣هـ ، ثم توجه الى دمشق لرؤية القاضى الفاضل قال : « فوجدته مريضا مدنفا فى خطة صعبة ، وفى حالة مخاطرة فخشيت أن أقيم فيجرى من المحتوم عليه مالا طاقة لى بمشاهدته ، فأقمت عنده أياما قلائل ، واعتذرت اليه بأننى وردنى عن أبى رحمه الله خبر مزعج ، وحديث مقلق ، فأعطانى دستورا بالعود عن نفس غير طيبة ، وعلى كراهية غير خافية ، فلما عدت ومن الله تعالى بعافيته كتبت اليه كتابا ، ونظمت قصيدة أعتذر فى كل منهما وأستغفر من انفصالى عن خدمته ، وخروجى من جنته ، فأما قصيدتى فمطلعها : -

تذكرت أيام الصبابة والصب

وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وبعد مقدمة غزلية طويلة اعتذر عن مفارقتها اياه وهو مريض ،

فقال : -

بسوء اختياري كان لى عنك مذهب

على أن قلبى لم يجد عنك مذهبا

ولولا أبى ما كان لى عنك مرغب
وكيف أرى عن جنبه الخلد مرغبا

وكم لك لولا سوء بختى نعمة
مننت بها لو شئت سميتها أبا

وبعد أبى كم نعمة منك نلتها
فألفيتها أحلى وأهنا وأعجبا

أبى لى أن أبقى السعيد بزعمهم
شقاء أبى أن يسعد المرء ان أبى

وقد وصلت تلك القصيدة القاضى الفاضل ، وأعجب بها ،
ثم كتب الى ابنه القاضى الأشرف كتابا تعليقا على تلك القصيدة ،
وهذه الحادثة ، وقد أورده ابن سناء فى النصوص جاء فيه :
« وأما اعتذارك عن معلمك القاضى السعيد فى كونه فارقنى
فأرقنى ، وأوحدنى فأوقدنى ، فهذه حجج ملفقة علمك اياها فانه
يعلمك السحر ولكنه سحر البيان وما أحق أقواله أن توصف بما
وصف به ابن المعتز كتابته بأنها سحارة تحكم عقد اللسان ، وقد
عقد لسانى عن عتبه بالسحر من كتبه ، فانى لما قرأت كتابه ،
وتأملت قصيدته التى اعتذر فيها عن فراقى ، وهربه منه ، وتركه
اياى . . أشواقى آخذة بأطواقى ، كنت كلما قرأت فصلا أو بيتا
تحللت عقدى فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من
وجد ما وجد ما فقد منه ما فقد ، وما هرب الا خوفا أن يقضى على
بالمحتوم وهو حاضر بحضرتى ، فينفى ويتجرع حسرتى دون أسرتى
وهذا عذر استحى أن يقوله فقلته عنه ، وخجل أن يجعله عذره
فعذرتة من عند نفسى منه ، ما عليه والله عتب ولا له ذنب ، ومن
أين للوجه الجميل ذنوب ، ووددت لو كان البحرى حيا فكنا نلسه
من تلك القصيدة بحيه ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ،

وتستتر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب
وأيهما أحق بملك القلوب ، ولاشك أن الغالبة هى زينب الغالب
وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب (١) .

وقصيدة البحترى التى يعنىها الفاضل هى التى مطلعها :-

اجدك ما ينفك يسرى لزينا خيال اذا آب الصباح تأوباً

وفى سنة ٥٨٤ هـ رأى صلاح الدين أن تصحيح الأوضاع
الاقتصادية فى مصر لن يتم الا بعلاج حاسم سريع فعول على القاضى
الفاضل وأمره بالسفر الى مصر ، فكتب الى ابن سناء يذكر تبريزه
من دمشق عائدا الى مصر فقال ابن سناء قصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر وحاشاك من وجهها ضحك الشجر

ثم هنأ فيها بالقدوم من السفر :

هنيئاً لمصر أنها حلها الندى	وبشرى لمصر أنها جاءها البحر
هنيئاً لها أن يسر الله يسرها	فلا عسر الا جاء من بعده يسر
وقد جاء مصرا نيلها فى أوانه	فليست تبالي ضن أو سمح القطر
وعاد الى صدر الأقاليم قلبه	فعاش ولولا القلب لم يخلق الصدر

وقد أعد هذه القصيدة ليعرضها عليه اذا وصل ، ولكن الله
قدر أن يتأخر ، فأرسل اليه هذه القصيدة مع كتاب يشرح قصتها (٢)
وقد أعجب بها القاضى الفاضل أيما اعجاب ، وكتب : « مارأيت
أغرب من مطلع تلك القصيدة ، ولا أدل منها على شطارة طبع
ولا من بيت الكأس المكسورة ، وهو يعنى قوله : -

(١) فصوص الفصول : خط .

(٣) « فصوص الفصول » :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا أدل منه على صلابة نبع ، ولا من بيت الورق الخضر ،
وهو يعنى قوله : -

فلا تنكروا منها الخصاب فانما

هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ولا أدل منه على رقة طبع ، وشدة نزع ، ماهو الا مالك عنان
الفضل فى عصره ، وواحد كل دهره ، ولا أسمح بهذه المنقبة
لدهره وما تغصصت الا بغيبه ابن المعتز عن أن يسمع كما تسمع ،
فيقطع بفضلله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ، ويغص عن
غلواء توجييه ، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذى البرمة فأخذ فى
طريقه مستأنساً برفقته ، فما ترك له تشبيها الا نقله وصقله ،
واستعمله واستنزله (١) »

وفى نهاية سنة ٥٨٤ هـ رحل القاضى الفاضل الى مصر ،
وبينما كان فى بيت المقدس ، وصلته قصيدة بائية يشير الشاعر
فى مطلعها الى قصيدته الرائية السابقة :

رأت منك رائيتى ما تحب وبشرى لها أنها لم تحب

وقد أرسل مع هذه القصيدة كتابا هنأ فيه بالقدوم ، جاء
فيه : « ولما علم المملوك بالاياب سارع الى عمل قصيدة للهناء بالقدوم
وأملأها عليه بلسان الجذل اقتضابا ، وأذن له الفرح وقال صوابا
وجعل القافية على باء ، وأراد تسييرها لتلقى مولانا فى طريقها ،
فوجدوها مقيدة والمقيد أسير ، لايطيق المسير ، وتأسى بها المملوك
لأنه يجب عليه أن يسعى الى أول البلاد الشامية لتلقى مولانا ،

فكان هو أيضا مقيدا من الاحسان بقيوده ، لا يطيق معها القعود ،
فلما أبطأ اياه سيرتها اليه ، وكتبت عليها كتابا جاء منه في ذكرها :
« ٠٠ فلما وصلت القصيدة والكتاب أجاب الفاضل الى أبيه القاضي
الرشيد : » وما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها في الهناء
بالأمر غير الواقع وبالوصول الى مصر ، وبينه ما شاءت الأقدار من
الموانع ، وبالجملة أن أهل هذه الصناعة ، وقفوا خلفا ، ووقف أماما
وأنت السماء بهم دخانا ، وأنت به غماما ، وتأخروا وان تقدموا ،
فخقصروا وان سبقوا ٠٠ » (١)

فشهد له بالسبق على أقرانه ، والتقدم على نظرائه ، وأنهم
وقفوا خلفا ، ووقف هو أماما الى غير ذلك .

وقد بقى الفاضل بمصر حتى نهاية سنة ٥٨٦ هـ ، ومن
المحتمل جدا أن بعض القصائد التي لم تؤرخ في الديوان تكون قد
قدمت للفاضل في هذين العامين .

وفي سنة ٥٩٢ هـ مات القاضي الرشيد والد الشاعر فتعرض
بعد فقدته لأزمات شديدة ، وضنك مرير حتى أحس انصراف الناس
عنه ، وشماتة الحساد فيه ، وربما ترك وظيفته ، وصفرت يده ،
وساءت حاله ، ولذا نراه في القصيدة النونية التي مطلعها : -

جاءت بحسن مظهر
جاءتك منه بكل فن

يشكو اهمال القاضي الفاضل له ، وانصرافه عنه ، ثم
يستصرخه ويتدنى ، ويسرف في التدنى ، ويصرح بجوعه ، ويطلب
رفده ونواله : -

ثقل الزمان على حتى م خف بين الناس وزني

(١) نصوص الفصول : ١٦ ، ١٧ .

وسقيت منه مكارها
وأراه جار فكيف جا
وانفل عزمى واستيه

حتى امتلات وقلت قطنى
ر وأنت منه لم تجرنى
حت قلعتى وانهدركنى

ثم قال :

ومضى أب يحزنو على
وأراك لا تحنو وتشـ
أفنى زمانى يالتشو

م فليت أُمى لم تلدننى
بع حاسدى وتجميع بطنى
ف والتشهى والتمنى

وقد نظم هذه القصيدة يوم فى عاشوراء : -

ونظمتها فى يوم عا شموراء من همى وحزنى

وفى هذه المناسبة يظهر موقفه كسنى على عكس ما لصق به
من تهمة التشيع ، فالشيعة يفرطون فى حزنهم فى هذا اليوم
فيلبسون السواد ، ويضربون صدورهم بالحجارة ، ويقيدون أيديهم
بالأغلال والسلاسل ، أما السنيون فانهم يحزنون من غير مبالغة
ولذا يقول : -

يوم يساء به وفيه
ان لم أعز المسله
أو كنت ممن لاينو
كل شيعى وسنى
ين به فانى لا أهنى
ح به فانى لا أغنى

وفى قصيدة أخرى دالية بلغت الخمسة والستين بيتا ، نظمها
بعد سنة ٥٩٢ هـ أى بعد موت والده أيضا يجأ بالشكوى والاستغاثة
بالقاضى الفاضل ، ويضيق باهماله له : -

وقل من يفقد الرشيد أبا
برا فيلقى من أمره رشدا

قد كان لى والد وكان من ال طاعة والبر بى يرى ولدا
وكان بى جنة النعيم فما بالى رأيت النعيم قد نفدا

ثم غالى فى مدح القاضى الفاضل فجعله قد استعبد الخلق
بنواله ولولا خوفه لعبدوه ، والملوك تفد الى بابه ، ورأيه سديد
الى غير ذلك من الصفات التى تعود أن يخلعها عليه ، ثم صرح بأنه
جرد من منصبه : -

أصبحت لا منصبا ولا أملا فيه ولا نعمة ولا حسدا
لا مسعدا لى على الزمان ولا سعدا ولا عاضدا ولا عضدا
كسدت فيه وليس ذا عجبا منه فمثلى فى مثله كسدا
وظف غيرى وما لحقت به لا يستوى الأشقياء والسعدا
وكان لى والد وكان به عيشى من بعد أن غدا رغدا
واننى ما يئست من أملى ان لم يجى اليوم منك جاء غدا

والظاهر أن هذه الفترة كانت عصيبة حتى على القاضى
الفاضل نفسه ، فلم يكن مستريح النفس للأوضاع القائمة بعد
موت « صلاح الدين » وربما يكون هذا هو السر فى تلك الجفوة
التي نوه عنها الشاعر ، غير أن هذه الجفوة سرعان ما انطفأ أثرها
وزالت شواهدا لأن الشاعر لم يظهر تلك الجفوة ، وهذا الإهمال
فى آخر قصيدة وجهها الى القاضى الفاضل قبل وفاته بثلاثة شهور ،
ومطلعها : -

شربت شرب الهيم من فم ذاك الريم
وقد مدحه وهناه بعيد النحر ، وذكر فضله وانعامه عليه
قد أثقلت ظهري وقد دت بالحياة أديمي

أقل ما يوليه تب جيل مع تعظيمي

وكان الشاعر قد أهداه كتابه دار الطراز ، فأثنى عليه ورفع قدره ، وقد أشار الشاعر الى ذلك حين قال :

ومنك تعلیمی وما علمت مع تفهیمی
وعمرت دار الطرا ز منك بالرقوم
كذا موشحاتی صر ن منك كالمطهیم
وهنا بالعید : -

وا هنا بعید قادم بأسعد القدوم
أتاك بالتكمیل للآمال والتمیم

وظل ابن سناء وفيا لأستأذه طيلة حياته ، غير أن القاضي الفاضل قد اعتزل الحياة السياسية بعد موت « صلاح الدين » لما رأى اختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة وقد وافته منيته سحر يوم الثلاثاء أو الأربعاء سنة ٥٩٦ هـ (١) ولم نعثر على قصيدة في رثاء القاضي الفاضل لابن سناء ، اما لأنه قالها وخشى اذاعتها من ابن شكر الذي كان وزيرا وكان شديد العداوة للقاضي الفاضل ، أو لأنها فقدت . وقد ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوى أبياتا لابن سناء على أنها في رثاء القاضي الفاضل وهي :

عبد الرحيم على البرية رحمة أمنت بصحبته حلول عقابها (٢)
ولكن الصحيح أن هذه الأبيات من قصيدة في المدح مطلعها : -

فرقت بين بئانها وخضابها وجمعت بين سلافها ورضابها
وقد هنا فيها بعید الفطر .

(١) القاضي الفاضل : الدكتور أحمد أحمد بدوى : ٣٣ .

(٢) القاضي الفاضل ص ٣٤ للدكتور أحمد أحمد بدوى .

علاقته بالوزراء والأمراء :

وكان لصلة القاضي الفاضل بصلاح الدين وحاشيته ، وبالبيت الأيوبي كله ، ولثقة صلاح الدين الزائدة به ، كان لهذا أثر بارز في تطلع ابن سناء الى الاتصال بالأمراء والوزراء ورجال الحاشية ، وقد ساعدته شاعريته على الاتصال بهم ، فمدح من السلاطين : « صلاح الدين » وأولاده العزيز والأفضل ، وأخاه الملك العادل ، كما مدح من الوزراء « ابن شكر » على الرغم مما كان بينه وبين القاضي الفاضل من عداوة كما توطدت علاقته بالملك المظفر تقى الدين فمدحه بكثير من القصائد وأشاد بعزيمته في الغزو والجهاد ، كما مدح الملك الظاهر غازي والملك المعظم شمس الدولة تورانشاه .

وقد توطدت علاقته ببعض هؤلاء الوزراء والأمراء فأحبوه وصادقوه ، وكانت علاقته بالأفضل ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي وطيدة حتى أنه عندما كان ابن سناء مارا بعكا أرسل اليه الأفضل رسولا خاصا يستدعيه اليه في دمشق ونفحه بالهدايا السنية . ويبدو أن ابن سناء اعتذر وسافر الى مصر ولكنه مدحه بقصيدة مطلعها : -

قهر بات بين سحري ونحري وخيول الدموع بالثم تجرى
وفيها يقول : -

وفدى منزلا على النيل فردا كل ربع لال مية قفر
كلفى قط لم يسافر وما خف ركب الغرام الا مصر

ثم يقول : -

جل مقدار ذكره لي على البع د لقد جل في البرية قدرى
واقضى الأمر منه شعري فار سلت اليه بهقتضى الأمر شعري

كما توطدت صلته بالعزیز ، فأشاد بجهاده وبطولته فى فتح
« تبنین » على الرغم من العدد العديید الذى كان يحيط بها ، ويدافع
عنها ، حتى سدوا كل طريق موصل اليها وفى ذلك يقول : -
الشام للاسلام دار القرار وكان من قبل طريق الفرار
وفىها يقول : -

جئت لتبنین ومن حولها قوم كأعداد الحصى للحصار
سدوا عليها الطرق حتى لقد كادوا يسدون طريق القطار
كما توطدت صلته بالملك الكامل ابن الملك العادل حتى ولاء ديوان
الجيش والاشراف عليه ، ولكن ابن سناء اعتذر عن ذلك اعتذارا
رفيقا ورأى أنه لا يصلح لمثل ذلك ولهذا قال : -

قد عجز المملوك عن خدمة ثباته فى مثلها طيش
للجيش ديوان ومالى به أنس ولا عندي له عيش
وصرت مهزوما فلا تعجبوا من واحد يهزمه الجيش
وقد استطاع ابن سناء أن ينفذ الى قلب « ابن شكر » حتى
حصل على خلع عديدة من الملك العادل عن طريق وزيره ابن شكر ،
كما حصل على هدايا ابن شكر نفسه ، وقد أهده ابن شكر بغلا
يسمى الجمل ، وقد صرح بذلك فى احدى قصائده اذ يقول : -

حملتنى فوق مركوب قوائمه كالسيل مع أنها قدت من الجبل
تمثال حسن بلا مثل يماثله فى الحسن لكنه فى السير كالمثل
علوت منه على الأفلاك أورده نهر المجرة بين القوس والحمل
وياؤه حذفت من اسمه غلطا فهو الجميل وان سموه بالجمل

وهكذا كان ابن سناء ينفذ الى قلوب الوزراء والأمراء ،
فيحملون له الود والحب والاكبار ، ويبدو أن شخصيته الى جوار
شاعريته كانا عدته النفسية التي حقق بهما تلك الصلات الوطيدة

المناصب التي وليها :

لقد كان القاضي الفاضل صاحب اليد الطولى في كل ماوصل
اليه ابن سناء من مجد ، وما أسند اليه من وظائف ، فقد عينه
كاتباً بديوان الانشاء ، ولقد كانت قصائد « ابن سناء » تصل الى
القاضي الفاضل تباعاً وهو في الشام ، وكان القاضي الفاضل
يعجب بها ، ويذيعها ويشيد بمحاسنها في أوساط الشعراء ،
وقد دفعه فرط اعجابه به الى أن يستقدمه الى « دمشق » ليكون
كاتباً سره في ديوان الانشاء ولكنه لم يبق طويلاً في الشام اذ أثر
العودة الى مصر لشدة تعلقه بها وفرط حنينه اليها ، وربما ورث
هذا الميل وذاك الحنين من أستاذه القاضي الفاضل الذي كان يقول:
وأما أحوالي فأننى لم أزل ملتاثاً منذ دخلت دمشق لتغير مائها
وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها،
ومن لى بمصر فأننى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها ، وأبيع
بردى وما عساه بشربة من مائها وأمتطى متن السيف في هجر
سوادها وسودائها .. (١) »

وفى سنة ٥٧٢ هـ تحققت رغبة ابن سناء فى العودة الى مصر
لأن « صلاح الدين » قد قرر مغادرة سوريا مصحوباً بموظفيه
فعاد ابن سناء معهم . وقد قرر الصفدى أنه كان يتقاضى راتبه
سواء أحضر الى الوظيفة أم لم يحضر ، ولما رحل القاضي الفاضل

(١) الروضتين : ج ٢ : ص ٥٨ .

مرة أخرى الى دمشق فى صحبة « صلاح الدين » لم يرحل معه «ابن سناء» بل بقى فى مصر وكيلا عن القاضى الفاضل يرعى ولاياته الواسعة وهى وظيفة لا تسند الا الى كفء موثوق فيه . وقد ظل ابن سناء فى هذا المنصب الهائل حتى وفاة القاضى الفاضل سنة ٥٩٦ هـ . ومن قصائده التى مدح بها القاضى الفاضل وصلاح الدين فى هذه الفترة نرى أن حالته قد تحسنت فى هذه الوظيفة .

ولما وافى الأجل المحتوم سيده القاضى الفاضل ، ووصل ابن شكر الى مرتبة الوزارة ، وهو العدو الألد للقاضى الفاضل لم يجد ابن سناء غضاضه فى مدحه ، والتقرب اليه حتى حظى بهداياه وصلاته - كما أسلفت - وبقيت صلته قوية بالخاصية والسلطين حتى ولاء الملك الكامل ابن الملك العادل المسئولية الكاملة عن ديوان الجيش سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسباً لطبيعته فرفض هذه الوظيفة فى أدب جم . وهذه كانت آخر ما رلى ابن سناء من وظائف .

مجالسه ومناذماته :

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء فقربوهم الى مجالسهم ، واستمعوا الى قصائدهم التى ألهبت مشاعرهم وأذكت حماسهم وعواطفهم ، فتمسكوا بالنصر ، ونعموا بلذة الجهاد ، ونشوة المدح .

فكان الخلفاء والأمراء والوزراء لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها، ويخمد أوارها فيعقدون الندوات، ويستمعون فيها الى النوادر والفكاهات أو يطربون بتغريد احدى المغنيات ، أو يتبارون مع الشعراء فى مدارس الشعر ونقده . وكان لبعض هؤلاء الخلفاء ميل فطرى الى الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه ، وانشاده ،

فلقد كان الملك الأفضل ابن صلاح الدين شاعرا و ذكر « ابن خلكان »
أن تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين الأصغر كان شاعرا ، وترك
ديوانا من الشعر ، وكذلك اشتهر الملك الكامل ابن الملك العادل ،
وأخوه المعظم عيسى كان يصدر في الشعر عن طبيعة سهلة حتى عرف
بذلك بين الشعراء ، وكان الشعراء اذا لم يتكلف أحدهم في قرض
الشعر وصفوه « بأنه يفعل فعلا معظميا » واشتهر كذلك المنصور بن
المظفر عمر بن شاهنشاه والى « حماه » بالشعر ، ووضع كتباً في الشعر
منها « طبقات الشعراء » . وكان ابراهيم بن فروخشاه والى « بعلبك »
شاعرا أديبا حتى قيل انه أشعر بنى أيوب ، وله ديوان شعر .

وقد اشتهر « صلاح الدين » ونور الدين محمود بميلهما الى
الأدب ، وتقريبهما الشعراء ، واستماعهما القصائد التى تسجل
انتصارهما ، وتخلد مآثرهما ، وكان كل منهما لا يرضى على الشعراء
بالمال والعطاء ، وكثيرا ما استدعى « صلاح الدين » بعض مقربيه ليقراً
له فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان « ابن منقذ » الشاعر الشامى
المعاصر من أفضل الدواوين اليه ، وكثيرا ما ردد فى مجالسه قول
أبى المنصور « محمد بن الحسن الحميرى » :-

وزارنى طيف من أهوى على حذر
من الوشاة ونور الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا
وكان يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول ابن المنجم :-

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله

ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منازل

فكان اذا قال : « ولكنه مات الشباب » يمسك بكريمته (يريد
لحيته) وينظر اليها ويقول : « اى والله مات الشباب » (١)

وقد قضى الملك الكامل ابن الملك العادل أربعين سنة فى حكم
مصر ، دأب فيها على تشجيع العلماء والأدباء ، ورويت عنه أخبار
أعادت الى الأذهان سيرة «هارون الرشيد» فقد كانت تبث عنده فى
القلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فيتنصب لهم أسرة ينامون
عليها بجانب سريريه ليسامروه ، فنفتت العلوم والآداب عنده ،
وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الادبية أكثر من أن تحصى . منها
على سبيل المثال أنه كان فى ليلة من الليالى جالسا فدخل عليه شاعر
من الشعراء اسمه «المظفر» فقال له الكامل : «أجز يا مظفر» :-

« قد بلغ الشوق منتهاه

قال مظفر : « وما درى العاذلون ماهو »

قال الكامل : « ولى حبيب رأى هوانى »

قال مظفر : « وما تغيرت عن هواه »

قال الكامل : « رياضة النفس فى احتمال »

قال مظفر : « وروضة الحسن من حلاه »

قال الكامل : « أسمر لدن القوام ألى »

قال مظفر : « يعشقه كل من يراه »

قال الكامل : « وريقه كله مدام »

قال مظفر : « ختامها المسك من لماء »

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية ٥٨٠ ، ٥٩٠ .

قال الكامل : « ليلته كلها رقادة »

قال مظفر : « وليلتى كلها انتباه »

قال الكامل : « وما يرى أن أكون عبدا »

فقام مظفر على قدميه وقال : « بالملك الكامل احتما »

العالم العامل الذى فى كل صلاتنا نراه
ليث وغيث وبردتم ومنصب جل مرتقاه (١)

وقد تأثر ابن سناء الملك بما كان جاريا فى هذا العصر بل ان داره كانت ملتقى الادباء والشعراء ، وكانت له مجالس تجرى فيها المحاورات والمفاكهات التى يروق سماعها ، وكانت داره احدى المنتديات التى جمعت أسباب الترف واللهو ، وجمعت بين ما يلذ القلب والعين ويمتع النفس والخطر ، ففيها الزهور والبساتين التى تزرى بأية روضة على حديث قوله : -

لقد قصرت عن شأوها كل روضة

وقصر عن أملاكها كل أفضل

وأنسى بها بين الورى ذكر جم

فر الرشيد فأنى جعفر المتوكل

وبها تماثيل مصورة ينساب منها الماء ، فكم من طائر ينبعث الماء من رأسه ، وأسد يثب الماء من فمه :

وكم طائر من رأسه الماء طائر

على أنه فى وكره كالمكبيل

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : ٦٤ .

وكم أسد والماء من فيه واثب
وان كان لم ينهض ولم يتحلجل

ولو رآها كسرى وقيصر لضرب كل منهما كفا على كف ،
ولفرفاه وجحظت عيناه : -

يقابل كسرى قيصرا وكلاهما
يقلب طرف الباهت المتأمل
فكسرى يرى الايوان كسرا وقيصر
يرى القصر خص الناسك المتبتل

ويجد العشاق متعتهم فى أبهاء تلك الدار ، فقد صور فيها
مناظر العشاق الذين يرون العشيق فرضا منزلا على حد قوله : -

وصور فى أرجائها كل عاشق
يرى العشق فرضا فى الكتاب المنزل

جميل بشين مع كثير عزة
يصوغان أشعار الهوى والتغزل

وله فى وسطها منظره تطل على النيل كأنها الزهرة اللامعة
المتألقة وكأنها جمعت بين حسن الدنيا وجمال الآخرة :

أنظر الى المنظره الناضرة
تزهـر مثل الزهرة الزاهرة

أحسن ما فى حسنـها أنها الاد
نيا وما ألهت عن الآخرة

فى هذه الدار وفى غيرها (فى القاهرة) كان يلتقى بأصدقائه
وأحبابه ، وبالشعراء والنقاد فيناقشون مسائل الادب حينئذ ،

ويعبثون حيناً ، ويحتد بعضهم على بعض فى المناقشة حيناً آخر ،
وكان يدعو أصدقاءه الى مجلسه ، ويهددهم بالهزاء ان لم يجيبوا
دعوته ، وهذه احدى رسائله الى أحد أصدقائه : -

حضر الحبيب وأنت أشـ هـى للفؤاد من الحبيب
فلئن حضرت مسارعاً

فلأصـفـحـن عن الذنوب

ولأمدحك بالفتـو
ة فى الحضور وفى المغيـب

ولئن قعدت لأهـجـونـ
ك فى البعيد وفى القـريـب

وأقول هذا فى النها
ر قد استرحنا من رقيب

ويرسل الى صديق آخر يستدعيه فيقول له : -

تهت عنا مذ تهت عجباً علينا
يا كثير الخطا قليل الاصابة

نحن فى دعوة فان غبت عنا
رجعت دعوـة عليك مجابه

وقد حدثوا أن ابن سناء بلغه أن « هبة الله بن مقلد الكاتب »
قد هجاه فأرسل اليه من أحضره ، وأدبه ، وشتمه ، فكتب اليه
تشو الملك المعروف « بابن المنجم » الشاعر :

قل للمـسـعيد أدام الله نعمته
صديقنا ابن وزير كيف تظلمه

صفعته اذ غدا يهجوـك منتقمـا
فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه

هجو بهجو وهذا الصفع فيه ربا
والشرع ما يقتضيه بل يحرمه

فان تقل ما لهجو عنده ألم
فالصفع والله أيضا ليس يؤلمه

وجاء فيما كتبه الصفدى عن ابن سناء أنه حضر اجتماعات
الشيخ أبى المحاسن البهنسى اللغوى أبى الوزير البهنسى الذى أصبح
وزيرا للأشرف بن العادل ، وكان ابن سناء ذكيا ذا عقل ناضج يفهم
ما يقال بسرعة ، وفى هذه الاجتماعات اتصل برجل مغربى تعود
أن يشغل نفسه بتأليف الموشحات المغربية بالإضافة الى الأزجال ،
فاتصل به ابن سناء ، وناقشه فى الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا ،
بل انها تقدمت على يديه أكثر مما تقدمت على يد المغاربة أنفسهم ،
غير أن ابن خلكان وياقوت لم يشر أحدهما الى هذه الحادثة • وقد
ادعى ابن سناء فى كتابه « دار الطراز » أنه اعتمد على نفسه اعتمادا
كليا فى معرفة الموشحات واستنباط قواعدها ، ونهجهما الذى تسير
عليه •

وقد مر ابن « عنين (١) الشاعر الدمشقى بالقاهرة فاستهوته
مجالسها ، وطابت اقامته بها فترة من الزمن ، انهالت عليه الدعوات
من الأدباء والشعراء ، واجتمعوا معه على أرغد عيش ، وكانوا يقولون
هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، وبخاصة
مع ابن سناء الملك •

أخلاقه : اذا كان لنا أن نستخلص طرفا من أخلاق ابن سناء
فاننا نجد أنفسنا أمام مصدرين رئيسيين ، وفى نظرى أن كلا منهما

(١) ابن عنين : ولد فى سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م وتوفى سنة ٦٣٠ هـ
١٢٣٢ م وله ديوان نشره خليل مردم بك بدمشق .

يعطى صورة تختلف عن الصورة الأخرى فأما المصدر الأول فهو ظروف نشأته ، وانحداره من أصل جمع بين الغنى والجاه ، والثقافة والأدب ، وكذلك صلته بالقاضى الفاضل ، وهو الوقور الجاد ، والوزير الخطير ، وكذلك ما كتبه عنه الادباء والمؤرخون . أقول : ان هذا المصدر لو اعتمدنا عليه فانه يضيف على شاعرنا صفات عظيمة كالاعتدال والورع ، والتقوى ، والشموخ ، والاعتداد بالنفس . أما المصدر الثانى فهو ديوانه وشعره ، واذا اعتمدنا عليه فاننا نلمس منه صورة تختلف عن الصورة السابقة فأكثر من نصف الديوان للمدائح ، ومعظم هذه المدائح يشتمل على مبالغات غير مقبولة فهو يصل بممدوحه حد الألوهية فالدهر لو أخطأ فان هيبة عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) تؤدبه وتقيم عليه الحد وبذا يقسم ابن سناء : -

ويمينا لو عربد الدهر سـكـرا
لأقيمت منها عليه الحدود

ويرى أن الدهر خادم وأن القاضى الفاضل سيده :

وما الدهر الا خادم أنت ربه
وما الخلق الا عالم أنت فاضله

ويرى أن القدر لا يستطيع أن ينقض ما أبرمه الممدوح :

فلا يقدر المقدار ينقض ما قضى
ولا يستطيع الدهر يهدم ما بنى

ويعيد هذا المعنى نفسه فى مدائحه لصالح الدين : -

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا
وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وفى مدح الملك العزيز يرى أنه هو الذى ينظم أمور الكون
ولولاه لا نفرط هذا النظام :

لولاك تنظم عقد هذا الدهر لا نحل النظام

بل انه ليعترف هو على نفسه بأنه كاذب فى مدائحه ، صادق
فى أهاجيه : -

كتابة الكذب فى مديحي ورونق الصديق فى هجائي

فماذا نستخلص من وراء هذه المبالغات ؟ لقد جرى فى ذلك
مجرى شعراء عصره الذين غلبت عليهم المبالغة ، وتجاوزوا حدود
الصدق الفنى فوصل بهم ذلك الى حد الكذب والنفاق .. هذا
اذا تجاوزنا نظرة الدين وأنه بهذه الصفات الخارجة عن حد
المألوف ، والتقى لا يوصف بها غير الله - خارج عن حدود الدين .

وقد اشتمل ديوانه على كثير من الخلاعة والمجون والاستهتار
وبمراجعة أشعاره فى المجون نرى أن القلم يعف عن ذكرها والتعرض
لها ، فكثيرا ما صرح بتجاربه مع غلمان ، وجوار وصرح بأعضاء
التذكير وبأعضاء التأنيث من غير مبالاة ولا اهتمام .

ولكن الحقيقة تعلن أن كثيرا من الشعراء فى هذا العصر حتى
الشعراء المتصوفين كانوا يتجهون هذا الاتجاه اذ أن حياة الحرب
والحرمان الجنسى ، وكثرة سبب الحروب الصليبية ، وغلمان الأتراك
قد جعلت الغزل بالمدح شرعة لدى الشعراء حتى أن الشاعر
الذى يعف عن ذلك كان لا يقرأ شعره ولا يهتم به حتى ليصرح
بذلك عمر بن الوردى :

أستغفر الله من شعر تقدم لي
في المرد قصدي به ترويح أشعاري (١)

ويقول في موضع آخر :

ما المرد أكبر همي ولا نهاية علمي
ولست من قوم لوط حاشا تقاي وحلمي
وانما خرج دهري كذا ففتقت شعري

وبالغ ابن سناء في فخره ، واعتداده بنفسه ، فهو يحتقر
الناس جميعا ، ولا يأبه بهم ، ويرى الزمان عبدا وهو سيده :

وفرط احتقاري للأنام لأنني
أرى كل عار من حلي سؤددى سدى

وانك عبدى يا زمان واننى
على الكره منى أن أرى لك سيديا

ولو علمت زهر النجوم مكانتى
لخرت جميعا نحو وجهى سجدا

أرى الخلق دونى اذ أراهم فوقهم
ذكاء وعلماء واعتلاء وسؤددا

مذهبه الدينى :

وفى هذا المقام ينبغى أن نتعرض لمذهبه الدينى ، اذ أن هذه
المسألة كانت هامة فى ذلك الوقت لأن بعض الشعراء كانوا ما زالوا
يؤمنون بالعتيدة الفاطمية ويظهر أثرها فى شعرهم ، ومثل هؤلاء

(١) ديوان ابن الوردي طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .

كانوا محاطين برقابة الدولة ، وبعض آخر كان يظهر فى شعرهم أثر العقيدة الفاطمية دون وعى منهم لذلك ، وهؤلاء كثرة من الشعراء ومنهم ابن سناء الملك ولقد اتهم ابن سناء بالتشيع ، فقد قرر ابن سعيد فى كتابه « الاغتباط » أنه كان مغاليا فى التشيع (١) وأيد الصفدى ما ذهب اليه ابن سعيد بأبيات قالها ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ اتهم فيها ابن سناء بأنه كان يكره أم المؤمنين عائشة زوج النبی ، ولم يكن يحب أباهما ، ولذا نال ما يستحق وسقط من فوق البغل الذى أهدها اليه « ابن شكر » ، والذى كان يسمى بالجمل .

ولا نستطيع أن نمر على مثل هذا الاتهام دون أن نناقشه لنكشف عن وجه الحق فيه .

١ - فنحن نعرف أن ابن سناء تلقى علوم الحديث عن السلفى، وكان السلفى سنيا شافعى المذهب ، وكان ابن سناء يحترمه ويحبه حتى خصه ببعض مدائحه بطريقة لا يقبلها الشيعى ، فقد خاطبه صراحة بأنه أمام الاسلام ، وأحسن مرشد لشريعة النبی عليه السلام وهذه صفات يتردد الشيعى فى ذكرها ، استمع اليه يقول :

فجئت الى الاسكندرية قاصدا

الى كعبة الاسلام أو علم العلم

الى خير دين عنده خير مرشد

وخير امام عنده خير مؤتم

الى أحمد المحيى شريعة أحمد

فلا عدمت منه أبا أمة الأُمى

(١) الاغتباط فى حلى مدينة القسطنطينية ج ٢ : ٢٩٣ .

إذا ما شياطين الضلال تمردت
جدالاً فمن أقواله كوكب الرجم

أتيت له مستشفعا بدعائه
يقل به جرمي ويشفع في اثمى

٢ - لم يذكر المؤرخون المنصفون من أمثال « ابن خلكان »
و « ياقوت » و « أبى الفداء » ما يشير الى عقيدة الشاعر وأنه كان
شييعياً .

٣ - من تتبعنا لكتب ابن سناء لم نعثر على ما يؤيد ذلك من
قريب ولا من بعيد ، بل على العكس من ذلك وجدنا ما يؤكد أنه كان
سنيّاً ، ففي مقدمة كتابه « فصوص الفصول » يمدح صحابة النبي
عليه السلام المهاجرين منهم والأنصار دون أدنى تحفظ ، وأكثر من
من هذا لا يوجد أى ذكر لعلى أو للأئمة الآخرين من بيته ، ومن
الطبيعى أن لا يمدح الشيعة أصحاب النبي ثم يهمل ذكر على والأئمة
الآخرين فهاهو ذا يقول : « وصلى الله على السيد الأجل ، النبي الأُمى
الذى يؤمن بالله وكلماته ، ويخرج المؤمنين من ظلل الكفر وظلماته ،
محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وهجروا ، وآووا ونصروا ،
واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أظهره الله بهم على الدين كله ، وجمع
لهم به الخير أجمعه » (١) .

٤ - فى مدحه الملك المظفر « شاهنشاه » يقرنه فى أدب جم ،
واحترام زائد بسميه عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، ويراه
مترسباً نهجه ، ومعيداً فى الناس سيرته :

وسيرك فينا سيرة عمرية
فروحت من قلب وفرجت من كرب

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

وردك فينا من سميك سنة
فأظهرت ذاك الفرض من ذلك النذب (١)

٥ - وحين يهجو ابن عثمان يقول :

على وعشان أبوه وجده
على قوله - حاشا علياً وعثماناً

فان سرقوا اسما الكرام فربما

رأينا يهوديا يسمى سليمانا

فالشيعة لا يقرن علياً بعثمان ، اذ يرى علياً هو الخليفة وحده ،
وغيره من الخلفاء معتدون .

٦ - وفي مدائحه للقاضي الفاضل ينفي عن نفسه التشيع نفياً
صريحاً فيرى أنه في حبه للقاضي الفاضل يجمع بين صفة التشيع
من ناحية الحب العامر للممدوح ، وبين صفة السنية من حيث مذهبه
الديني فيقول : -

أصبحت في مدح الأجل ، واكم أتتني من أياديه ثنى
وغدوت من حبي له متشيعاً يا من رأى متشيعاً متسنناً

وفي قصيدة أخرى يقول : -

تشيع الخلق مثلى في محبته اذ كان قائم جود غير منتظر

وهو شيعي فقط في حبه الزائد واخلاصه للقاضي الفاضل ،
وفي البيت اشارة الى القائم عند الامامية وهو المهدي المنتظر الذي
ينتظر الشيعة عودته .

٧ - وفي قصيدة نونية أخرى يمدح بها القاضي الفاضل يشير الى يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين ، والشيعة يلبسون فيه السوداء ، وينتحبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل الحديدية حتى تسيل منهم الدماء ، وما زالوا يفعلون كذلك في العراق وخاصة في كربلاء والنجف موضع قبر علي والحسين ، وهو في هذه القصيدة ينفي عن نفسه أنه شيعي ، وأن أوضح أنه يوم يشترك فيه الشيعي السني حزنه فيقول : -

ونظمتها في يوم عا	شوراء من همى وحزنى
يوم يناسب غبن من	قتلوه ظلما مثل غبنى
يوم يساء به وفي	كل شيعي وسنى
ان لم أعز المسالم	ين به فانى لا أغنى
قتل الحسين بكل ضرب	للبغاة وكل طعن

وهذا هو رأى السني في يوم عاشوراء . .

٨ - وثمة حقيقة أخرى ننهي بها هذا الموضوع وهي أن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيا ، فقد قضى على « عمارة اليمنى » لمالآته أهل الشيعة على الرغم من أنه سنى . . . بينما حظى ابن سناء بكثير من خلع الشرف من « صلاح الدين » وخلفائه في مصر . ومن ثم نؤكد أن ابن سناء كان سنيا ، وأن كل ما قيل عنه رجم من حاقده أو ناقم ، أو ساع له بشر أو مدبر له أكيدا ، أو غافل عن الحقيقة .

آثاره العلمية :

لقد ترك ابن سناء بعض الآثار الأدبية التي مازالت تعيش بيننا حتى اليوم ولم يتح لها أن ترى النور نذكر منها : -

١ - روح الحيوان : لخص فيه الشاعر كتاب الحيوان للجاحظ (١) ، وكان الشاعر مولعا بمذهب الجاحظ في الكتابة ومعجبا به ، ولذا درس بعض كتبه دراسة دقيقة ، حتى أخذ على عاتقه تلخيص كتاب الحيوان واحتفظ منه بنسخة خطية دون عليها الجاحظ بعض ملاحظاته بخط يده . وقد أشار ابن سناء في إحدى الرسائل التي بعث بها الى القاضي الفاضل الى تأثير الجاحظ في الكتاب الذين أتوا بعده ، مثل ابن العميد ، وأبي حيان التوحيدي ، والوزير أبي القاسم المغربي . وقد سر القاضي الفاضل من اتجاه الشاعر ، وأغراه أن يستمر في دراسة مؤلفاته الأخرى كالبيان والتبيين (٢) .

٢ - مختارات من شعر ابن رشيق القيرواني :

من إحدى الرسائل التي بعث بها ابن سناء الى القاضي الفاضل نعرف أنه جمع مختارات من شعر ابن رشيق أعجب بها ثم أرسلها الى أستاذه مع مذكرة نقدية ، ويبدو أن القاضي الفاضل قد أعجب بتلك المحاولات ورآها ذات أثر بالغ في تكوينه ككاتب في ديوان الانشاء فأشار عليه أن يجمع مختارات من شعر ابن الرومي ، ويظهر من الرسائل المتبادلة بينهما أن هذا العمل لم يتم .

٣ - دار الطراز : في فن الموشحات :

وهو من أعظم آثار الشاعر الأدبية ، وقد حققه الدكتور جودة الركابي وجعله موضوعا لرسالته التي نال بها الدكتوراه ، وهو لا يزيد عن مائة وخمسين صفحة ، وقد قسمه الشاعر ثلاثة أقسام : -

(١) معجم الادباء ج ٩ : ٢٦٥ ، وفيات الاعيان : ج ٢ : ٢٨ .

(٢) فصوص الفصول .

القسم الأول : مقدمة طويلة تحدث فيها عن فن الموشحات ، وقوانينه ، وعرفنا طريقة كتابته ، وناقش تفصيلا أشكال الموشحات المختلفة ، وضرب لها الأمثلة من موشحات مغربية .

والقسم الثاني : يستعرض فيه الموشحات الغربية التي استمد منها أمثلته في المقدمة .

والقسم الثالث : موشحات ابتكرها وصاغها بنفسه . ويعد ابن سناء قمة شعراء المشرق في كتابة الموشحات ، بل شهرته في الموشحات تفوق شهرته في الشعر (١) كما ادعى الدكتور جودة الركابي .

٤ - مساعد الشوارد : وهو أحد كتبه التي لم نعر عليها ، وإنما علمنا ذلك من إحدى رسائله إلى القاضي الفاضل - وهي رسالته التي تحدث فيها عن عيونه الملهبة ، وعن مرضه الخطير ، وقد ذكر أن هذا الكتاب بأكمله جاء ضمن كتابه المسمى : مساعد الشوارد ، كما وردت الإشارة إليه في قائمة كتبه التي ذكرها الصفدي .

٥ - فصوص الفصول وعقود العقول : وقد قسمه قسمين : القسم الأول منه يحتوي على خطابات المؤلف التي كتبها إلى القاضي الفاضل ، وردود القاضي الفاضل عليها . والقسم الثاني يحتوي على الخطابات التي كتبها الفاضل عن الشاعر إلى والده القاضي الرشيد ، وإلى ابنه القاضي الأشرف . وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة في دراسة شعر الشاعر إذ أنه ينير الطريق عن بعض قصائد الديوان ومناسباتها ، والملاحظات النقدية التي أبدتها القاضي الفاضل .

(١) دار الطراز ، تحقيق جودة الركابي .

٦ - ديوان شعره :

وهو ديوان ضخم يحوى أكثر من ثمانية آلاف بيت من الشعر، مدح فيه القاضى الفاضل وصلاح الدين الأيوبى ، وأبناءه من بعده ، ويستطيع الباحث فى الديوان أن يتعرف على كثير من حوادث العصر وما قام به صلاح الدين الأيوبى وأبناء البيت الأيوبى الذين مدحهم من بطولات رائعة فى صد الصليبيين وهزيمتهم . وقد قمت بتحقيق هذا الديوان .

وفاته :

وقد وافاه أجله فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ودفن بالقاهرة (١) . ولم يتعرض ابن الأثير الى تأريخ وفاته فى هذه السنة .

وقد ذكر صاحب الكمال فى عقود الجمان أنه توفى يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وذكر العماد الكاتب فى الخريدة ما يأتى : « ... توفى والده جعفر فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ وقرر أنه رأى بخط بعض أصحابه أن الشاعر قد توفى يوم الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ . وكان مولده منتصف شوال سنة ٥٢٥ هـ والله أعلم .

ولكن الحقيقة أن هذا التاريخ الذى عرضه العماد الكاتب إنما لمولد والده ووفاته . وأن سنة ٥٨٠ هـ هى السنة التى مات فيها جده . وقد أشار الى تلك التواريخ الشاعر نفسه فى القصائد التى رثى بها والده وجده (٢) .

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان .

(٢) راجع الديوان : قصائد رثاء أبيه وجده .

موقف ابن سناء من الحروب الصليبية :

- ١ - الحملات الصليبية وأثرها
- ٢ - عماد الدين زنكى
- ٣ - نور الدين محمود
- ٤ - ظهور صلاح الدين على مسرح السياسة
- ٥ - توحيد مصر والشام والجزيرة
- ٦ - أثر الوحدة العربية فى الحروب الصليبية
- ٧ - موقعة حطين
- ٨ - فتح القدس
- ٩ - نكسة

موقف ابن سناء الملك من الحروب الصليبية

الحملة الصليبية :

وجدت الدعوة الى حرب المسلمين فى بلاد الشرق آذانا صاغية فى أوربا ، فلم يجد « بطرس الناسك » ولا البابا «أوربان الثانى» ، وهما أول من دعا الى الحروب الصليبية ، وحماية قبر المسيح - لم يجدوا عناء ولا مشقة فى اقناع الأوربيين ، فقد كانت نفوسهم مهيأة لهذه الدعوة التى سوف تنقذهم من القحط والجذب المخيف الذى تعرضت له كثير من المدن الأوربية ، حتى أن مدنا وقرى بأكملها صارت أحرابا لاسكان فيها ، ولا أمن يسودها بل انتصب قطاع الطرق فى كل مكان يعيشون فى أرجائها فسادا ، وقتلا وانتهابا(١) ،

Histoire des Croissades, p. 57 ; History of the Saracans, by
Ameer Ali, p. 323.

وانتشرت الفوضى ، وضعفت الحكومات عن السيطرة على الأفراد والجماعات ، ونصب كل فرد من نفسه حاكما ، يصون حقوقه بسيفه ، ويغسل عن نفسه الاهانة بحديده وناره ، ولمس البابا ذلك كله فى نفوس الناس ، فحول نشاطهم من حرب بعضهم بعضا الى حرب المسلمين فى الشرق ، وقد رحب بها الملوك ليتخلصوا من منافسات أمراء الاقطاع ، ووجد فيها الأمراء فرصة لتأسيس اقطاعات جديدة لهم فى الشرق ، ورحب بها الأقنان ليتخلصوا مما كانوا فيه من فقر واستعباد وأرهاق .

وساعد على ذلك ما بين العرب من تفكك وضعف ، فالصليبيون لم يواجهوا دولة عربية متحدة ، وانما واجهوا دويلات عربية متنافسة متناحرة ، كالسلاجقة فى العراق والشام ، والفاطمين فى مصر ، وبين الدولتين العربيتين عداً محكم ، فالسلاجقة سنيون ، والفاطميون شيعة ، وحالة الحرب والتآمر سائدة بينهما ، حتى ان الصليبيين عندما توجهوا الى بلاد الشرق وجدوا من العرب من تآمر معهم على العرب ، وتحالف معهم ضدهم ، ونصرهم عليهم ، وكان عداً البابوات ، ورجال الكنيسة للدين الاسلامى وتعصبهم الممقوت عليهم من أهم العوامل التى جعلتهم يدعون للحروب الصليبية بحجة استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين وعنتهم فى معاملة المسيحيين ، أو اهانة قبر المسيح ، وقد غالى رجال دينهم فى تصوير ذلك مغالاة أثارتهم (١) ، ولم يكن لذلك فى الواقع ظل من الحقيقة ، فلقد كان حكام فلسطين يعاملون المسيحيين ، كما قال المؤرخ الفرنسى : «Michaya» كحلفاء وأنصار ، فشجعوا تجارة الأوربيين ، والحج الى الأماكن المقدسة ، وبنيت من جديد أسواق

(١) أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة : ص ٢٦ ، ٢٧

الفرنجة فى مدينة بيت المقدس ، وأقيمت نزل الحجاج ، وأصلحت
الكنائس المخربة » (١)

لهذه الأسباب المتقدمة ، ولأسباب أخرى لا داعى للإفاضة فيها
اندفع موج متلاطم من مسيحي غرب أوروبا الى الشرق العربى يبعثون
تأسيس امارات واقطاعات ، واعادة ما فتحه العرب مما كان تحت
يد الفرنج ، وقد استمرت هذه الحروب زهاء قرنين من الزمان من
(٤٩٠ هـ - ٦٩٠ هـ) « ١٠٩٧ - ١٢٩١ م » (٢) .

وقد استطاع الصليبيون بسهولة أن ينتزعوا من أيدي
المسلمين المتفرقين ما كانوا يحتلونه فى آسيا الصغرى ، ثم كونوا
أربع امارات صليبية فى الشرق العربى وهى : « الرها » على أطراف
العراق والشام ، ثم « أنطاكية » و « بيت المقدس » وأخيرا « طرابلس »
بالشام ، وقد اقتسم أمراء الحملة الصليبية هذه الامارات ، فنصب
كل منهم نفسه ملكا على امارة منها ، وأقاموا فيها حكومات اقطاعية ،
على النمط الذى ألفوه فى أوروبا قبل مجيئهم ، وقد لقيت البلاد
المفتوحة على أيدي الصليبيين أقصى ما عرف من ألوان التخريب
والتدمير ، ونال سكانها أشد ما ينزل من القتل ، والذبح
والاحراق (٣) . ويقول أمير على : « لقد كانت شوارع انطاكية
الضيقة ، وميادينها الرحبة تجرى بالدماء الانسانية وأن أقل تقدير

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام للدكتور أحمد

أحمد بدوى : ص ٩ . Histoire des Croissades, p. 21

(٢) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية : محمد عبد الله عنان

ص ١٠٧ - ١١٥ طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ م .

(٣) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية : ص ١١ .

لمن ذبح فى أنطاكية يبلغ عشرة آلاف نفس ، وفى « معرة النعمان » ذبحوا مائة ألف من الناس ، جرت دماؤهم فى الشوارع ، ثم أعاد « بوهمند » (١) النظر فى أسراه فمن كان منهم قويا جميلا احتفظ به رقيقا ، يباع فى أسواق أنطاكية ، ومن كان معمرأ أو مريضا قتل على مذبح القسوه .» (٢) . وفى بيت المقدس ذبح المسلمون فى الطرقات والمنازل ولم يعد فى بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ، فبعض الذين فروا من القتل ، ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار وآخرون جروا جماعات ، واختبئوا فى القصور وفى الأبراج وبخاصة المساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من ملاحقة الصليبيين لهم ، فدخل المسجد مشاتهم وفرسانهم ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفى وسط أشنع ضوضاء كنت لاتسمع الا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثا ، وقال شاهد عيان : - « ارتفعت الدماء الى ركب الخيل وأعنتها فى الهيكل ، وتحت ايوان . المسجد (٣) ، وقد بلغ عدد القتلى نحو سبعين ألفا من المسلمين لم يرحموا شيئا طاعنا ، ولا طفلا رضيعا ، ولم تشفع لديهم صرخات الأرامل ، ولا أنين الشكالى ، وانما دفعهم الغيظ والحقد ، وأنسأهم التعصب ما وصلته بعض البلاد من رقى وحضارة وتقدم ومدنية ، كما كانت عليه «طرابلس» فأحالوا بهجتها الى وحشة ، وعمرانها الى خراب، ومكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها الى رماد (٤) .

(١) بوهمند النورمندى ابن ملك جنوب ايطاليا .

(٢) History of the Saracans والحياة الادبية لاحمد بدوى ص ١١

(٣) الحياة الادبية : ص ١٣ ، والحروب الصليبية فى المشرق والمغرب :

محمد العروسى المطوى : ص ٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٥ : ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ١٤٨ - ١٥٠ .

ولم تكن أوضاع العرب ، وماهم فيه من فرقة وانقسام
وما بين بلادهم من اختلاف المذاهب والآراء - لم تكن تسمح لهم
بمقاومة هؤلاء الطاغين الباغين ، القساة الظالمين فقد كانت الشام
مجزأة ومقسمة فكل بلد كبير منها امارة وعلى كل امارة أمير يطمع
في تقوية ملكه وتثبيت عرشه وتوسيع رقعة بلاده . ورأى الفاطميون
في مصر أول الأمر أن ذلك الاعتداء الصليبي لايهمهم ، فليس عليهم
أن يذودوا عن الشام التي تدين بغير ما يدينون ، والتي تتبع غير
ما يتبعون . وشغلتهم المؤامرات والدسائس وانصرفوا عن مقاومة
الصليبيين ، وتلك سياسة قصيرة النظر أدت الى استيلاء الفرنج على
ما كان الفاطميون يمتلكونه في فلسطين من مدن (١) .

وهكذا استطاع الفرنج أن يثبتوا أقدامهم ولو الى حين في
الشام ، وملأ الغرور نفوسهم ، وحاولوا أن يضربوا الاسلام في
عاصمته « بغداد » و « القاهرة » ، ولكنهم أخفقوا : « ورد الله الذين
كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .. » .

عماد الدين زنكي :

كانت الحملات الصليبية ، وما أحدثته من تخريب وتدمير ،
وظلم وعسف ، وقتل وسلب ، الناقوس الذي دوى فأيقظ
المسلمين من سباتهم ، والأمراء من أبراجهم ، وفتح عيون المبصرين
منهم الى الخطر الماحق الذي يتهددهم ، وكان أول الأمراء الذين
تعرضوا للصليبيين في قوة وعزم هو « أتابك عماد الدين زنكي »
أمير الموصل الذي بدأ يوحد قوة العرب تمهيدا لمهاجمة الصليبيين
فضم « حلب » اليه ، وبذلك استطاع أن يهدد امارتين صليبيتين هما
امارة « الرها » و « أنطاكية » وقد حاصر « عماد الدين زنكي » « الرها »

(١) صبح الأعشي ص : ٥٢٣ .

بعد ذلك ، وكانت أهم معقل للصليبيين فى شمال العراق ، واستمر يحاصرها حتى سلمت له سنة (٥٣٩ هـ) (١١٤٤ م) (١) . وكان ذلك الانتصار ضربة قاصمة للصليبيين اذا انكشيت املاكهم بعد ذلك ، واقتصرت على ساحل الشام ، وظل « عماد الدين زنكى » يتعقب معاقل الصليبيين ، ويقض مضاجعهم حتى قتل غيلة على قلعة جعبر ، وهى على الفرات بين « بالنس » و « الرقة » قرب « صفين » (٥٤١ هـ) (١١٤٦ م) (٢)

نور الدين محمود :

ترك « عماد الدين زنكى » أمر الصليبيين من بعده لابنه « نور الدين محمود » الذى انتقلت فى أيامه الحرب الصليبية الى مرحلة ثانية ، فقد قامت فى اماره « الرها » فتنة عاصفة ، وقدمت من أوروبا نجدات صليبية تقصد اعادة « الرها » ولكنها تحولت عنها الى حصار دمشق .

ولم يكد الأمر يستقر «لنور الدين» وأخيه «سيف الدين غارى» صاحب الموصل حتى اتجها الى اخماد الثورة فى الرها فتمكننا من اخمادها ، وتصدى « نور الدين » بعد ذلك لمواجهة الحملة الصليبية الثانية التى حصرت «دمشق» واستطاع أن يهزم الصليبيين ، ويرغمهم على رفع الحصار عن « دمشق » ، وقد استطاع «نور الدين» أن يضم « دمشق » سنة ١١٥٤ م ، وبذلك خطا خطوة هامة فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين الذين أصبحوا مهددين بقوات « نور الدين » من الشمال والشرق ، وقد حاول بعض

(١) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب : ص ٥٤ ، والرها : مى مدينة أورفا الحالية بشرق تركيا شرقى الفرات ، وتسمى خليج الاسكندرونه (معجم البلدان) .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ : ٢٨١ .

وزراء مصر كطلاع بن رزيك أن يتفق مع نور الدين على مهاجمة الصليبيين من الشمال ، ومن الجنوب ، حتى يقضوا عليهم قضاء نهائيا ، ولكن الاختلاف المذهبي بين « نور الدين » السني ، والوزير الفاطمي الشيعي قد حال دون ذلك الاتفاق . (١)

ولما أحس الصليبيون بتضييق الخناق عليهم في الشام، وجهوا جهودهم الى مصر ، فحاولوا أن يستولوا عليها وشجعهم على ذلك ما كانت عليه مصر آنذاك - في أواخر الدولة الفاطمية - من ضعف الخلفاء ، واستتبداد الوزراء بهم ومحاولة كل وزير اعتلاء الوزارة بطريق الدس والفتن ، والثواشايات والحروب .

مهدت هذه الفوضى الداخلية في مصر الى تدخل الصليبيين من جهة ، كما مهدت لتدخل نور الدين محمود من جهة أخرى ، حتى آل الأمر الى القضاء نهائيا على الدولة الفاطمية وزوال أسباب الجفوة المفتعلة بين الشام وبين مصر على يد البطل أنقوى ، والقائد العظيم الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبي » .

وبذلك نكون قد أوضحنا الخطوات التي خطتها الحروب الصليبية حتى ولى الأمر « صلاح الدين » ، وأنها كانت الشر الذي انبثق منه الخير ، فحقا انها عاثت فى بلادنا العربية فسادا ونشرت ظلما واضطهادا ، واستذلت بلادا وسكانا ، الا أنها مع ذلك هيأت الجو لقيادات صالحة ، ومهدت لفجر جديد ، أشرق على البلاد العربية التي وحدتها الأهداف ، وقوتها الأحداث ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشد الشبه الآن بين إسرائيل الدخيلة ، وبين الصليبيين السفاكين ، وكما اجتاحت العروبة الموحدة شأن الصليبيين ، وطهرت البلاد من رجسهم فكذلك سيكون الشأن مع إسرائيل . .

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية لاحمد بدوى ص ١٤ .

توحيد مصر والشام والجزيرة وديار بكر وأثر ذلك في هذه الحروب :

لم يكد «صلاح الدين» يلي وزارة مصر حتى وجه كل همه وذكائه الى استقرار الأمور فيها ، فكان لين العريكة سمحا ، قوى البأس شديدا ، ثاقب النظرة ، يرى ما وراء الظواهر ، حتى استطاع أن يقضى على الفتن والدسائس التي كانت كل هم القصر ، ولم يمكن الوشاة من أغراضهم الدنيئة ، وكانت «وقعة العبيد» احدي الوقعات الكبرى التأديبية لكل من تسول له نفسه الخيانة ، وطلب العون من الفرنج أعداء البلاد . (١)

وفي سنة ٥٦٧ هـ مات «العاقد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، واستبد «صلاح الدين» بسلطنة مصر ، وخطب للخليفة العباسي في أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، ثم وجه عنايته الى استتباب الأمور ، واستقرار الأمن ، وتوحيد البلاد ، فأرسل أخاه «توران شاه» الى فتح بلاد النوبة ، فوطد الأمور بها ، وأمن جنوب البلاد . وفي سنة ٥٦٩ هـ سار «شمس الدولة تورانشاه» الى اليمن اذ لم يجد في النوبة طائلا ، فاستقر فيها أمره ، وعاد الى «زبيد» فملك الحصون والجند ، وقد مدحه الشاعر «عمارة اليمني» بكثير من القصائد ، وحبب اليه فتح بلاد اليمن . . .

ولما استقرت أمور «صلاح الدين» في مصر وجه اهتمامه الى الشام لأنه رأى أن القضاء على الصليبيين لن يتيسر له الا اذا توحدت أجزاء الوطن العربي ، وبخاصة بلاد الشام حتى يتيسر حصر العدو وتضييق الخناق عليه ، ووقوعه بين فكي الكماشة ، ولذا انتهز «صلاح الدين» وفاة الملك العادل «نور الدين محمود» سنة ٥٦٩ هـ واتجه الى الشام في جيش كثيف بحجة أنه سيحمي الملك الصالح

اسماعيل الذى ولى الأمر فى « دمشق » بعد موت أبيه « نور الدين »
لصغر سنه ، وعدم قدرته على مواجهة أعباء الحكم (١) .

وسرعان ما استقبل « صلاح الدين » فى دمشق استقبالا
الفاحين الظافرين ، فوزع الجوائز والمنح ، والتف حوله الشعراء
والأدباء ، يمدحونه ويشيدون ببطولته وانتصاراته .

أثر هذه الوحدة فى الحروب الصليبية :

لقد يسرت هذه الوحدة بين أجزاء الوطن العربى توحيد القيادة
العربية ، ووفرت الموارد ، وقطعت أسباب العداء والخلاف بين القواد ،
كما أتاحت وحدة المذهب الدينى ، وانتشار المذهب السنى ، وقضت
على الدسائس والمؤامرات فى القصور (٢)

ولقد كانت هذه الوحدة أملا يداعب خيال الشعراء ، والأدباء
والمخلصين ، وأوحت هذه الوحدة للشعراء بفن جديد أطلق عليه
الدكتور « محمد كامل حسين » « فن الشعور بالقومية الاسلامية »
وقد اشترك فى هذا الفن عدد كبير من الشعراء فى مختلف البلاد
الاسلامية ومحيت فكرة تفضيل العرب على الأعاجم (٣) . وسرعان
مادب الرعب والفرع فى نفوس الصليبيين فلم تغن عنهم كثرتهم
شيئا ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت ، وتوالت هزائمهم ،
وانكشفت ظهورهم ، ووقف صلاح الدين أمام الصليبيين سدا منيعا
وصخرة عاتية ، تكسرت عليها آمالهم ، وانهارت مطامعهم ، وكانت
قصائد ابن سناء التسع التى مدح بها (صلاح الدين) سجلا رائعا
لتلك المعارك ، وهذه الانتصارات التى سجل بها « صلاح الدين »

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤ .

(٢) راجع منشور الرقة الذى كتبه القاضى الفاضل فى الروشتين

ج ٢ : ص ٤٧ .

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبين : د . محمد كامل حسين :

ص ٨٧ .

اسمه فى سجل الخلود ، وأملى على الأحداث تاريخه المشهود ، وبهر الشعراء جميعا ، وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية فى صد الصليبيين لونا من الشعر الحماسى ، وحسبنا أن نتتبع قصائد ابن سناء تاريخيا لنعرف دوره فى تسجيل تلك البطولة الرائعة .

فى سنة ٥٧٥ هـ نازل « صلاح الدين » الصليبيين قرب « بانياس » وأسر فرسانهم ، وشجعانهم ، وانهزمت جموعهم فى أول لقاء فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب جبيل ، وابن القميصية ، وابن بارزال صاحب الرملة (١) وغيرهم ، ولذا مدح « ابن سناء » السلطان صلاح الدين بقصيدة نونية مطلعها : -

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى
ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

وبعد خمسة عشر بيتا خصها للنسيب انتقل الى مدح الناصر فقال :
فدى لابن أيوب الملوك فانهم - اذا بخلوا أعطى وان أفقروا أغنى
فدى كل من يعطى المئين عفاته ترى ملكا يعطى الأقاليم والمدنا
ولم يكفه أن أخجل البيض بالدماء الى أن أرانا جوده أخجل المزنا

ثم تحدث ابن سناء عن نصره الاسلام وتحطيمه الكفر ، وفرار الأعداء أمامه ، وأسر من تشجع منهم ووقف ، وتحدث عن اشتداد المعركة وتشبع السيف من دمائهم ، وسأم الأبطال للنزال ، وهرب ملكهم فزعا يتحسس قفاه ، ويحسبه لشدة الهول مطعونا فيه ، ثم أسره بعد ذلك الملوك والقواد : -

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا اعنة خيل لا تعود ولا تثنى

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم
ثبت لهم والسيوف قد كره الطلى
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره
مضى ملكهم في أول الأمر هاربا
ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه
وأضحى أسيرا بادويل وغيره
أسارى جبارى لا يرجون فدية
وقطف رؤوس منهم آن أن تجنى
وجاءتهم والقرن قد سئم القرن
ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
ولكنه من بعده قرع السـنا
قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنا

بكى « الكند » واليسكند لا وحشه لهم

ولكن على نفســـــــيهما أسبلا الجفنا

غدا « بادويل » وهو يلعن نفسه

وحق لتلك النفس أن تريح اللعنا

وفى نهاية سنة ٥٧٧ هـ اتجه السلطان « صلاح الدين » صوب حلب قاصدا الاستيلاء عليها توحيدا للعروبة حتى تقف صفوا واحدا أمام جحافل الصليبيين ، وحتى يكون القائد الموجه للمعركة واحدا فلا تطل الخيانات برأسها ، ولا تلهى القواد مصالحهم الشخصية عن المصالح الكبرى للأمة الإسلامية ، فأرسل الى واليها « عماد الدين زنكى » الذى كان قد قرر لقاءه ، وتحصن بأجناده وعساكره أرسل اليه مهددا متوعدا ، فلما رأى « عماد الدين » أن لا قدرة له على لقاءه تراجع وقبل أن ينزل عنها بغير حرب ، على أن يعوضه السلطان عنها « سنجار » فرد السلطان عليه « سنجار » وخلع عليه مدنا أخرى (١) ، واستولى « صلاح الدين » على حلب وأصبحت جزءا من الدولة الكبرى التى تدين لصلاح الدين بالطاعة ، وهزت انتصاراته تلك قريحة « ابن سناء الملك » فمدحه بقصيدة بائية مطلعها : —

بدولة الترك عزت ملة العرب
وبابن أيوب ذلت شريعة الصلب

وكان الأتراك عنصرا هاما فى كيان الدولة الاسلامية ، ولذا
امتدحهم الشاعر فى مطلع قصيدته ، ثم أشار الى فتح حلب وضمها
الى مصر : -

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر وغارت مصر من حلب
وقد ترك الغزل فى هذه القصيدة على غير عادته ، وأشار الى
ذلك بقوله :

ألهى مديحك شعرى عن تغزله
فجاء مقتضبا فى اثر مقتضب
فلم أقل فيه لا أن الصبابة لى
يوم الرحيل ولا أن المليحة بى

فقد انشغل عنه بمدحه ، وحديثه عن فتوحه فى أرض الجزيرة
وسياسته الحكيمة فى التغلب على أعدائه : -

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها
بهالك فطن أو سائس درب

وكانت أوصال الدولة الاسلامية مفككة ، وعلى كل جزء منها
ملك ليس له من الملك غير الاسم ، أما قيادته وتصريفه ففى يد
مملوك خصى ، ليس له من الفهم والدراية أكثر مما لصبى ،
ويسجل ابن سناء هذا كله فى تلك القصيدة فيقول : -

ممالك لم يدبرها مدبرها
الا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاه صلاح الدين فانصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب

واستعمل الجِد فيها غير مكثرت
بالجِد حتى كأن الجِد كاللعب

وقد حواها وأعطى بعضها هبة
فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب

ثم يشير الى تفضله على حاكم « حلب » وتعويضه عنها ببعض
المدن : -

ويمنح المدن فى الجدوى لسمائه
كما ترفع فى الجدوى عن الذهب

ومذ رأت صده عن ربعتها حلب
ووصله لبلاد حلوة الحلب

غارت عليه ومدت كف مفتقر
منها اليه ، وأبانت وجه مكتئب

وكان الشاعر فى هذه القصيدة موضوعيا ، وما أجدر هذه
القصيدة أن توضع الى فرائد المتنبى فى سيف الدولة - سجل
الأحداث وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه ، وتجربته
الواعية الصادقة ، ولذا نخرج بهذه القصيدة عن نطاق العقم فى
شعر « ابن سناء الملك » الذى وصمه به الدكتور الأهوانى فى
كتابه « العقم والابتكار » (١) ولعل عذره فى ذلك أنه لم يدرس
شعر ابن سناء دراسة تفصيلية .

وقد استولى صلاح الدين على حلب فى نهاية عام ٥٧٩ هـ ثم
استمر فى مناوشاته الصليبيين حتى كانت موقعة حطين الكبرى
سنة ٥٨٣ هـ وفى هذه الأثناء كان ابن سناء يسجل هذه الأحداث ،

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ - ١٥٢ .

ويشعل الحماس فى نفوس المحاربين ، ويقوى عزائمهم ، ويشيد
ببطولة صلاح الدين ، ففى سنة ٥٨١ هـ أرسل من مصر قصيدة
سينيه يمدح فيها صلاح الدين ، وقد أرسلها اليه عن طريق
أستاذه القاضى الفاضل ومطلعها : -

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس
لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

وقد تأثر فى هذه القصيدة بقصيدة المتنبى التى مطلعها : -

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقد خص الشاعر من هذه القصيدة عشرين بيتا للغزل ،
ولكنه مدحه فى الباقي منها ، وهى من الشعر الحماسى ، تحدث
فيها الشاعر عن بطولة « صلاح الدين » وأنه شاد للجهاد دارا
منيعة ، بناها الرمح ، وهندسها الحسام ، والقسى تنحنى لراحة
السلطان ، والسلطان يرى فى وسط المعارك جدلا ضاحكا ،
مستهينا بالحرب ، وجواده هو الذى يعبس ويهتم ، ورؤوس
الأعدى وأيديهم تتطاير فى المعركة ، وتتقدم اليه معتذرة ، وجحفله
يجر الدروع ، وحصانه ملثم بالحديد ، : -

وماذا تقول المدح فيه ومدحه
بآثاره يروى ويقرا ويدرس

ومن شاد دارا للجهاد فأصحبت
بها الرمح يبنى والحسام يهندس

لراحته تنحنى القسى وبعضها
هلال له فوق السماء مقوس

يرى جذلا فى حومة الحرب ضاحكا
فلا القلب منحوب ولا الوجه معبس

وبين البيت الأخير وبين بيت المتنبي : —

تمر بك الأبطال كلابى هزيمه
ووجهك وضاح وثغرك باسم

تشابه واضح فى المعنى . ويقول « ابن سناء » فى حصان
السلطان : —

أغار عبوس الوجه فيها جواده
ومن عجب أن الجواد يعبس

تطير اليه طاليات أمانه
ومعتذرات منه أيد وأرؤس

وقل حصان بالحديد ملثم
عليه كهى بالحديد مقلنس

وهو من قول المتنبي : —

أتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهن قوائم

ويقول ابن سناء :

تزاحمت الأبطال فيه فخرقت
ثيابا لها من عهد داود تلبس

وهو شديد الشبه بقول المتنبي : —

تقطع مالا يقطع الدرع والتنا
وفر من الفرسان من لا يصائم

ويقول ابن سناء : -

لك المدح منى تنتشى السامعون به
كأن مديحي في معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع مدحي مطبق
وجأشك في قهر الملوك مجنس

وهو قريب الشبه بقول المتنبي : -

لك الحمد في الدر الذي لى لفظه
فأنك مطييه واني ناظم

وقد وصلت قصيدة « ابن سناء » الى القاضي الفاضل ، وهو
في دمشق ، وكان الملك الناصر مريضا مرضا خطرا « بحران »
فأخر انفاذها اليه حتى عوفى . فكتب « ابن سناء » قصيدة أخرى
فائية في مدح الناصر مطلعها : -

نظر الحبيب الى من طرف خفي
فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

وكتب معها رسالة الى القاضي الفاضل جاء فيها : -

« والقصيدة السينية قد صادفها زحل في الطريق ، وحرمها
التوفيق . » فأجابه القاضي الفاضل في كتابه الى ابنه الأجل
الأشرف : « والقصيدة السينية ماوافقها زحل في طريقها ، بل
يقوم المشتري أحسن القيام في قضاء حقوقها ، وتأخرت عندي الى
أن سيرتها مقترنة بالفائية ، لتكون البلاغة أكثر نفيرا . ويكون
بعضها لبعض ظهيرا ، ولو أنصفناه لكان أدنى مافيهما من بيت يعمر
ألف بيت ، وكان يوسف عروسها قد قال لها وأغناها عن أن تقول:
هيت ، وقرنتها بفصل الى المقام الناصري نبهت فيه على أنها من
القال الفصل ، وأقمت الشهادة في بابها وان كان صغيرا فانه

كبير أهل الفضل الذى علمهم الفضل وأن الدولة بمدحه قد أنزل
الله عليها فى الغابرين ، وأبقى لها ذكرا حسنا فى الذاكرين » .
ويهمنا فى هذا المقام أن نشير الى موضوع القصيدة الفائية ، فلقد
خص منها ثمانية عشر بيتا للغزل ثم هنا السلطان بالشفاء من
مرضه ، وأشار الى كمد الصليب بشفائه ، وبشر المسلمين بنجاته ،
وأن الله قد اصطفاه لنصرة دينه ، وحمى به الدين من أن يمحى ،
وجعل أكبر كافر يعنو لأصغر مسلم ، ثم أشار الى أمله فى أن يكون
فى حاشيته « صلاح الدين » لأنه نذر أن يحج بيت الله اذا شفى
السلطان ، وقد شفى فحق عليه أن يحج ، وحبذا اذا كانت تلك
الحجة ، وهو فى ركابه وحاشيته حتى يفوز بأمر مضاعف : -

ولقد نذرت على شفائك حجة
ولقد شفيت فقد تعين أن أفى

سهلت لى حجى فمبك موصلى
لمنى وجودك موقفى فى الموقف

ولئن تيسر مع ركابك قابلا
حجى فى فوزى بأجر مضعف

انى بذأ أدعوا وأسأل ملحفا
والله ليس يرد دعوة ملحف

وقد قرظ هذه القصيدة القاضى الفاضل ، وقرنها بالمعلقات
بل جعل المعلقة دونها جودة وبلاغة ، لأن هذه فضلتها بجودتها
وجدتها : « وأما الفائية فالوأواء عندها فأفاء ، ومن هو الوأواء
الركيك ، بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندها فأفاء ،
وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفاء ، ولو وفى سار بنظرة
عندى لوفت ، ولو كفى مؤنس من ابنه لكفت ، ولو استعظفت

الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ،
ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان
فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذي ولده ، وفخر الولد الذي ماقضى
حقه أن أحبه « (١) » ، وقد وصلت القصيدتان الى « صلاح الدين »
ولكنه لم يفعل شيئاً للشاعر ، اذ أن انشغاله بالحروب الصليبية
آثنت قد الهاه عن التفكير فى الشاعر .

وفى سنة ٥٨٢ هـ ظهر نجم فى السماء له ذؤابة ، ولم تجر
العادة بظهور مثله فكان حديث المنجمين ، وشغلهم الشاغل ، ويبدو
أن ظهوره قد خالف ما ارتأوه قبلاً من أنه لن يظهر الا وقت اقتران
الكواكب فى الوقت الذى حددوه ، ولذا أشار ابن سناء الى خطئهم
بقوله فى هذه القصيدة : —

نجومك ما أعيت على راصد لها
وذا النجم أعياراصدا ومنجما

وقد استهل هذه القصيدة بقوله : —

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما

بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

وهو تعليل لطيف لطول ذؤابة ذلك النجم ، وكان هذا النجم
يسمى « الكف الخضيب » ، وقد رأى الشاعر أنه آخر ظهوره فى
السما حتى تحلى الدهر بظهور « صلاح الدين » فظهر هو كذلك
فى السما تكريماً له : —

وما برج « الكف الخضيب » معطلا

فلما تحلى الدهر منك تختما

فلا تفتخر كف السماء بنجمه

فكم أطلعت أفعالك الغر أنجما

وبعد أن خص النجوم في مطلع القصيدة باثنى عشر بيتا انتقل الى مدحه وبالع فيه مبالغة غير مقبولة حتى جعل المقادير رهن إشارة السلطان ، فلا يستطيع أن تغير ما يبرمه ، ولا أن تبرم ما ينقضه .

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا

وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وجعله فريدا لا يدانيه أحد من الملوك والعظماء ، فهو الخليم وهم الجهلاء ، وهو العظيم وهم الأذلاء ، وهو يعطى اذا بخلوا ، ويعفو اذا عاقبوا ، ويفى اذا غدروا ، ويسمو اذا هبطوا وأن سيرته لم تدع في الأرض ظلما ، وكرمه وعطاؤه لم يبق معدما فنائله يسعى الى كل سؤاله حتى أفسدت كثرة عطاياه قصاده لأن عطاءه كالربيع بعد المحل : -

فلا تقرنوه بالملوك فانه	أجلهم أرضا وأعلاهم سماء
يخفون جهلا حين يحلم قدرة	ويخفون ذلا حين يبدو تعظما
اذا بخلوا أعطى ، وان عاقبوا عفا	وان غدروا أوفى وان هبطوا سما
فسيرته لم تبق في الأرض ظلما	ونائله لم يبق في الخلق معدما
له نائل يسعى الى كل سائل	فيطلبه بالماء والزاد أينما
وكم أفسدت أمواله قاصدا	له وقدير جمع الشىء الصحيح مسقما
أتاه فألفاه ربيعا وقبله	رأى كل جود فى الأنام المحرما

ثم انتقل الى بطولته وشجاعته ، ودفاعه عن الاسلام ، وعن

البيت المحرم الذى أنقذه من براثن الكفر ، ولولاه مابقى زمزم ،
ولتحطم الخطيم : -

لقد نصر الاسلام منهم بناصر

يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما

يذب عن البيت المحرم جنده

فلولاهم ما كان بيتا محرما

ولولاهم ما كان زمزم زمزما

ولولاهم كان الخطيم محطما

وقد تنسك بالاسلام ، ولكن الشرع أحل له أن يشرب دماء
الأعداء ، وكل حمى أمامه لا يحمى صاحبه : -

تنسك بالاسلام لكن رأيت

يحل له بالشرع أن يشرب الدماء

فكم سل لما سل من بطن غمده

لسان دم من ضربة خلقت فما

إذا ما صلاح الدين سار بجيشه

فليس الحمى ان أمه الجيش بالحمى

تكاثف فيه النقع واستلت الظبي

بأفاقه حتى أضواء وأظلم

وهى كما ترى من الشعر الحماسى ، الذى خلقتة الحروب الصليبية
وقد اعتذر الشاعر عن تأخير النسيب لأن مدائح السلطان أوجبت
تأخيره : -

ففى مدحه صار النسيب مؤخرا
ومن أجله عاد المايح مقدا

رأى مادحوه المدح أولى فأقبلوا
عليه ، وخلوا ذكر سعدى وكلثما

وفى هذه السنة نفسها زعم المنجمون أن الكواكب الستة
سوف تجتمع فى الميزان وعندما تهيج رياح زعزع تهلك الحرث
والنسل ، وخوفوا الناس حتى شرعوا فى حفر مغارات وسرايب ،
ونقلوا اليها الماء والطعام ، ولكن لم يحدث شئ فى هذا التاريخ الذى
حدوده فكتب الشعراء معرضين بكذب المنجمين ، ساخطين عليهم
وفى هذه المناسبة يكتب ابن سناء هذه القصيدة الى الملك الناصر
ويبدوها بالتعريض بالمنجمين : -

سعودك ردت ما ادعاه المنجم
وقد كذبتة فى الذى كان يزعم

يبشر بالريح العقيم وانها
كما قال عما قاله بك يعقم

ويقسم أن الأمر لابد كائن
وبالأمر قد أحنته حين يقسم

وجودك أمن للوجود من الذى
عن الريح يحكى أو به النجم يحكم

وقد قيل أحكام النجوم على الورى
وأنت على أحكامها تتحكم

ثم يهنؤه بالسلامة من المرض الذى كان قد أصابه ، وبحلول
شهر رجب : -

نهنيك بالشهر المرجب انه
يرجب فينا كاسمه ويعظم

وبالبرء من بعد البشارة انه
جسمك برء بعده ليس يسقم

ونشهد أن الشهر شهر مبارك
عليك وأن البرء برء متمم

وهذه القصيدة أشبه ما تكون بروح المتنبي قوة وسهولة ،
ووصف بطولة ، وقد أخرج فيها النسيب كما أخره في القصيدة
السابقة وأشار الى ذلك بقوله : —

فياناصر الدين الحنيف حسامه
ونائله الفياض يسلمو المتيم

لحذك أخرجت النسيب تهيبا
وعنادهم أن النسيب يقدم

وهذه القصيدة قالها الشاعر قبل سابقتها ، لأنه أشار هنا
الى أن النجم المذنب لم يظهر ، وهناك أشار الى ظهوره ، وهذا
يؤكد أسبقية تلك القصيدة .

موقعة حطين :

وفى نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١)
قصد « صلاح الدين » بعدد كبير من عسكره نحو طبرية (٢) ، على

(١) الروضتين : ج ٢ : ٧٥ .

(٢) طبرية : بلدة مطلة على بحيرة طبرية الواقعة بين الاردن واسرائيل

سطح الجبل ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا فى عدد كبير « بمرج صفرية » بأرض عكا ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ، فهجم « صلاح الدين » على طبرية ، واستولى عليها فى ساعة واحدة ، ولما بلغ العدو ماجرى قلقوا ، وتحركوا للدفاع عن أنفسهم وملاقاة « صلاح الدين » فاستهان المسلمون بالموت ، وأحسوا قوة المبادئ التى يدافعون عنها ، وأرضهم الطيبة التى دنسها هؤلاء المعتدون ، وصاحوا فى قوة وإيمان : « الله أكبر » فألقى الله البرعب فى قلوب الكافرين ، وشتت شملهم ، وراحوا يلوذون بالفرار ، وتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، واطلقوا عليهم السهام ، وحملوا عليهم بالسيوف ، وسقوهم كأس الحمام ، واعتصمت طائفة منهم « بتل حطين » (١) فضايقهم المسلمون ، وأشعلوا حولهم النيران ، واستبد بهم العطش ، فاستسلموا للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدمتهم ، وقتل الباقون ، وكان من أسر منهم الملك «جودفرى» وأخوه الملك « بلدوين » و « أرناط » صاحب الكرك والشوبك ، وألهب هذا النصر قرائح الشعراء ، فراحوا يتغنون به ، ويزدهون بقائد الاسلام ، وينددون بهذه المزيمة النكراء التى لحقت بالصليبيين ، وفى ذلك يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة مطلعها :—

حططت على حطين قدير ملوكهم

ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا (٢)

وقال ابن الساعاتى قصيدة عظيمة فى هذا الفتح مطلعها : —

جلت عزماتك الفتح المبينا
فقد قرت عيون المؤمنين (٣)

(١) وهى قرية عندها ، قبر النبى شعيب عليه السلام .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١١٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٤ .

السنة الشعراء بتمجيده وتعظيمه ، فمدحه فخر الكتاب أبو علي
الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر بقصيدة مطلعها : -

جند السماء لهذا الملك أعوان

من شك فيهم فهذا الفتح برهان (١)

وقد مدحه كذلك الشريف النسابة المصري محمد بن أسعد
المعروف بالجواني نقيب الأشراف في مصر بقصيدة مطلعها : -

أترى مناديا ما بعيني أبصر

القدس يفتح والفرنجية تكسر (٢)

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسي : -

أطلت على أفقك الزاهر

سعود من الفلك الدائر

فأبشر فان رقاب العدا

تمدد الى سيفك المباتر (٣)

ومدحه العماد الكاتب بقصيدة مطلعها : -

استوحش القلب منذ غبتم فما أنسا

وأظلم اليوم منذ بنتم فما شمسنا

ومنها : -

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا

وأشرف من أضجى وأكرم من أمسى

(١) الروضتين ج ٢ : ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) الروضتين ج ٢ : ١٠٥ .

(٣) الروضتين ج ٦ : ١٠٦ .

سجيته الحسنی وشيمته الرضى

وبطشته الكبرى وعزمته القسى

ومن العجيب حقا أننا لم نعثر لابن سناء على قصيدة فى هذه المناسبة وأغلب الظن أن قصيدته قد فقدت إذ أنه لم يكسر قلمه ، ولم يسد فمه بعد ذلك ، وإنما انطلق مغردا فى كل مناسبة حتى بعد وفاة صلاح الدين ، ولم يعرف أنه حنق أو تغير على صلاح الدين .

نكسة :

وآذن سقوط « القدس » فى يد المسلمين بسقوط كثير من بلاد الفرنج وحصونهم (١) ، ولم يقف فى سبيلهم غير مدينة « صور » وقد حاصرها « صلاح الدين » واستدعى أسطولا من مصر لمعاونته ، ولكن أسطول « صور » خرج بالليل فأوقع بأسطول المسلمين على حين غرة ، وقتل عددا كبيرا مما أجبر « صلاح الدين » على الانسحاب ، ففرق عساكره ، ورحل الى « دمشق » ولم يكد يقيم بها أكثر من خمسة أيام حتى وافاه النبأ بأن الفرنجة قصدوا « جبلة » فاغتالوها ، فخرج مسرعا يجمع عساكره من هنا ومن هناك ، حتى وصل الى « ارتنطوس » فحاصرها وقهرها واستولى عليها ، ثم اتجه الى « جبلة » فاستولى عليها أيضا ، وتبعتها « اللاذقية » ورفع العلم الإسلامى عليها وظل السلطان يطهر البلاد والحصون من الفرنجة ، ويستولى عليها حصنا بعد حصن حتى كان اليوم الثالث عشر من رجب سنة ٥٨٥ هـ. فبلغه أن الفرنجة قصدوا عكا فاتجه اليها ودخلها بغتة ليقوى بها قلوب المسلمين ، ولكن الفرنجة تكاثروا ، واستفحل أمرهم ، وتوالت عليهم الامدادات ، برا وبحرا حتى

(١) وقد ذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير منها : ج ٢ ص ٨٨ .

استظهروا على الجماعة الاسلامية، وضايقوهم وأخذوا عكا عنوة (١) .
وقتل في هذه الموقعة زهاء ثلاثة آلاف مسلم .

وتتالت المعارك بعد ذلك بين السلطان « صلاح الدين » وبين
الفرنجة ، غير أن جنده كان قد سئم الحرب ، وضاق بها ، فقويت
شوكة الصليبيين ، ولذا استقر رأى السلطان « صلاح الدين » على
الصلح .

وأبرم الصلح (٢) بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من اليوم
العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ ، ٢ سبتمبر ١١٩٢ م فوضعت
الحرب أوزارها لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر ، وفرق
« صلاح الدين » عساكره ، وعكف على تنظيم البلاد واعادة بنائها
فأصلح القدس (٣) ، وتفقد أحوال البلاد الساحلية ، ودخل «دمشق»
ونشر جناح عدله ، وهطلت سحائب انعامه ، وأنشده الشعراء حتى
وافاه أجله في ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته
دمعة في كل عين ، وشجى في كل حلق ، وأمى في كل قلب ، مات
رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة (٤) .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم وكأنها أحلام (٥)

وانتهت بذلك صفحة مشرقة من صفحات الجهاد أمام الغزو
الصليبي .

-
- (١) النجوم الزاهرة : ج ٦ : ص ٤٥ .
 - (٢) الروضتين ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .
 - (٣) الكامل لابن الأثير ج ٩ : ٢٢١ .
 - (٤) الاغتباط في حلى مدينة القسطنطين ج ٢ : ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
 - (٥) المرجع السابق : ص ٢٢٦ .

الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين وموقف ابن سناء منها

١ - الملك العزيز عثمان

٢ - الملك الأفضل

٣ - انتقال الملك من أسرة صلاح الدين

٤ - الملك العادل

٥ - الملك الكامل محمد

٤

الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين وموقف ابن سناء منها

لم يكن تاريخ الأيوبيين منذ سنة ٥٨٩ هـ وهى السنة التى رحل فيها صلاح الدين من عالم الفناء الى عالم البقاء - حتى سنة ٦٤٨ هـ ، وهى السنة التى هلك فيها آخر سلطان أيوبى بمصر - لم يكن سوى قصة للمطامع الشخصية ، والمؤامرات السياسية التى أشعلت نيران الحروب بين أبناء البيت الواحد الأيوبي ، فطمع كل منهم فيما فى يد الآخر ، ودفعه الحقد والغضب أحيانا الى أن يستعين بالصليبيين أو بالروم أعداء البلاد الألداء ، كما تفعل بعض الشراذم المغلوبة على أمرها اليوم فى التجائها الى الانجليز أو الفرنسيين يلتمسون منهما العون على اخوان لهم حين تعميهم مصالحتهم الشخصية عن المصالح الوطنية الكبرى للبلاد - وقد استمرت الحروب بين الأيوبيين ما يزيد على ستين سنة ، ودخلت

الحروب الصليبية فى عهدهم مرحلة جديدة امتازت بأن ما أحرزه الصليبيون بالمفاوضات الدبلوماسية يفوق ما أحرزوه بالحروب (١) وسوف نتتبع خلفاء مصر والشام فى هذه الفترة لتوضيح هذه الخلافات وموقف كل واحد من الصليبيين ، ثم موقف ابن سناء من ذلك .

الملك العزيز عثمان :

لقد حاول « صلاح الدين » أن يحسم الخلاف بين أبنائه بعد وفاته بتقسيم امبراطوريته العظيمة عليهم ، قال أمر مصر الى ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان مازال شابا لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، وكان فى مصر جل عساكر أبيه من الأسدية والصلاحية والأكراد ، وقد سولت له نفسه وزين له أتباعه من عساكر الصلاحية وقوادهم أن يستولى على دمشق من أخيه الأفضل وقد فر من بين عساكره الأسدية (عبيد أسد الدين شيركوه) وانضموا الى الملك الأفضل ، لأنهم كانوا يؤثرونه ويفضلونه ، وبالطبع قويت الوحشة بين الأخوين ، ودبت عقارب الفتنة فى نفسيهما ، ولم يتهيا للعزيز الاستيلاء على دمشق ، وقد سجل ابن سناء حادثة فرار الأسدية سنة ٥٩٢ هـ فى قصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتا مطلعها : -

من فر منك فما يلام
وطريد بأسك ما ينمام

فجعلهم غلما قد خافوا مقامه العظيم فلم يستقر لهم قرار ، ولم يظب لهم مقام ، وعجب الشاعر من فرارهم كالحمام على الرغم

(١) مصر فى عهد الايوبيين : والسيد الباز العرينى ١٠٧ .

من أنهم الأسود فليس لهم من صفة الأسدية غير الاسم وجعلهم فى شرودهم كالنعام ، ثم جعلهم لاينفعون ولايضررون أن مضوا ، أو أن أقاموا . فاستمع اليه يقول : —

فرت لخوفك غلـمة
ولطالما فر الغلام

خافوا مقامك ذا العظـم
يم فلم يكن لهم مقام

وهم الأسود فمالهم
طاروا كما طار الحمام

ونعم لهم نعم فلم
شردوا كما شرد النعام

لا ينفعون ولن يضر
م وا ان مضوا وان أقاموا

وابن سناء فى مدائحـه الملك العزيز تتمثل فى شعره حماسـة الحرب التى طبعت أسلوبه ، وأثرت على فنه ، ولذا نراه فى هذه القصيدة — على الرغم من أن الخلاف كان بين الملك العزيز وأخيه الملك الأفضل ، وأن هؤلاء الأسدية الذين انضموا الى أخيه الملك الأفضل لم يكن انضمامهم بالطبع لأعداء البلاد من الصليبيين ، — يهيج حفيظته عليهم ، ويثير حقده ضدهم بروح لا تقل عن تلك التى كان يثير بها صلاح الدين على الصليبيين : —

ولو انهم تحت الرجا
م لما أجنهم الرجام

أو فى الغمام لكان يـمـ
طرهم بساحتك الغمام

قم فاملك الدنيـا جميـ
عا فلقـد آن القيـام

ورم السماء تنل كوا
كبها فما يغنى المـرام

وشم الحسام فما يشـ
يم الذل ان شيم الحسام

فاحسم به داء النفسـا
ق فانه الداء العقـام

فالأرض لا تجنهم ، والغمام لا يحميهم ، وفى قدرة العزيز أن يملك الأرض جميعا ، وأن يبلغ مرامه ولو كان فى السماء والحسام وحده هو الذى يستطيع به أن يحسم داء النفـاق الذى دفع هؤلاء الى الهرب . وهى كما ترى روح مشبعة بالحماسة ، والشعر ملتهب لا يختلف فى درجة حرارته وقوة الدوافع فيه عن الشعر الحماسى الذى قيل فى صد الصليبيين .

ولما انتهى أمد الهدنة التى كان « صلاح الدين » قد عقدها مع الصليبيين جدها العزيز مرة أخرى غير أنه فى سنة ٥٩٤ هـ جرت عدة مناوشات بين الفريقين ، وقد استطاع العزيز أن يخلص قلعة « تبنين » من أيدي هؤلاء الفرنجة ، ولذا نجد ابن سناء يشيد ببطولته ، ويسجل ذلك الانتصار فى قصيدته التى مطلعها : -

الشام للاسلام دار القرار
وكان من قبل طريق الفرار

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا • وكان الفرنج
الألمانىون قد وصلوا من المغرب متجهين الى الشام ، وحاصروا تبنين
فأرسل الملك العادل الى ابن أخيه العزيز بمصر يطلب اليه أن يحضر
بنفسه لحفظ الثغر ، فخرج العزيز بجيوشه ، ووصل فى الثالث
والعشرين من ربيع الأول ، وكان الفرنج قد نزلوا أول صفر وقاتلوا
من وجدوه فى الحصن ، وكادوا يستولون عليه ، فلما أحسوا
بوصول الملك العزيز ، واجتماع المسلمين رحلوا عنه • وفى ذلك
يقول ابن سناء : -

جئت لتبنين (١) ومن حولها
قوم كأعداد الحمى للحصار
سدوا عليها الطرق حتى لقد
كادوا يسدون طريق القطار
ساق اليها الكفر أجناسه الـ
عظام قادتها الملوك الكبار
من كل من يزأر من غيظه
كأنه من مغرب الشمس نار

ثم يبين كثرتهم ، وأنهم سلكوا طريق البحر ، وطريق البر ،
فملئوا البحر بسفنهم حتى لم يكدر يظهر مأوه ، وأحدقوا بعد ذلك
بالشجر كأنهم الغل الذى يحيط بالعنق ، فهم : -

اما على البر أتى واكفها
أو بجناح القلع فى البحر طار

(١) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر تطل على بلدة بانياس بالقرب من
دمشق (ياقوت ج ١ ص ٨٢٤) .

وطبقوا البحر سفينا فما
بان وساروا فوقها في قفار

وأمموا الثغر وطاقوا به
وأحدقوا كالغل لا كالسوار

ثم وصف فرارهم ، وأنهم أصبحوا كالشرار المتطايير بعد أن
كانوا جمرة متقدة عندما أحسوا بقدومه ، وانهزموا هزيمة منكرة
صوب البحر لما رأوا بحر وغى يجتاحهم ، ولا يبقى لهم أثرا فكان
العزیز كالنهار وكانوا هم كالليل الذي يراع عندما يهاجمه النور . .
وتستروا بالليل لأن الوقت كان آخر الشهر العربي ولولا أن الليل
أرخی عليهم أزاره لعجل فيهم العزیز حد سيوفه فأشبعهم من دمائهم ،
وتطايير رؤسهم . استمع اليه : -

وكان أهل الكفر في جمرة
فعندما أطلت طاروا شرار

وانهزموا للبحر اذ أبصروا
بحر وغى تفرق فيه البحار

وعذرهم اذ هربوا واضح
هل يشبت الليل أمام النهار ؟ !

أقسم ما شدوا أزارا لهم
إلا لأن الليل مرخی الأزار

لولا سرى القوم وتعجيلهم
عجلت في القوم شقاء الشفار

لو لم يعق سيفك ماسح من
هام مطير مسح هام مطار

وقد مدح ابن سناء الملك العزيز بست قصائد أخرى لم نستطع أن نتعرف على تواريخها لأن ماورد فيها من مدح أوصاف عامة لاتحدد مناسبة ، ولا تشير الى أحداث ووقائع يمكن أن نستغلها في معرفة التواريخ .

وقد تمكن العادل من الايقاع بين الأخوين الأفضل والعزيز ليشق لنفسه طريقا يحقق بها آماله ، وقد مكنته الظروف من ذلك كما سنوضح بعد قليل . وقد كان العزيز ميالا الى العبث واللهو حتى راح ضحية لذئب كان يطارده عند الفيوم فوق من فوق جواده فى ٢٠ من المحرم سنة ٥٩٥ هـ مفارقا الحياة ، تاركا أمر مصر من بعده لابنه الأمير المنصور بن العزيز الذى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وأنى له أن يستمتع بملك مصر ، ومن ورائه عمه الأفضل ، وعم أبيه الملك العادل الذى لا يقف طموحه عند حد .

الملك الأفضل :

لما مات العزيز اجتمع رأى الأغلبية فى مصر على استدعاء الملك الأفضل ليكون وصيا على ابن أخيه المنصور ، وأيدهم القاضى الفاضل على هذا رأى ، واشتروا على الأفضل ألا يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، وألا ينقشه على النقود ، وألا تتجاوز وصايته سبع سنوات ، وبقي الأفضل فى مصر فأصلح أمورها ، وقرر قواعدها وحسنت فى الناس سيرته فى مطلع أيامه . غير أن عمه الملك العادل استطاع أن ينتزع منه مصر فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ .

وقد تتبع قصائد ابن سناء التى مدح بها الأفضل فوجدتها إحدى عشرة قصيدة احداها لامية ومطلعها : —

هـواى لمحـبـوبى الأول
فقصر من العذل أو طـول

ويدعوه فى هذه القصيدة الى العودة الى مصر ، ويبين تعلق
المصريين به ، وتطلعهم الى عودته وحكمه العادل ، وفضله على أهلها
فيقول : -

بكت مصر بالدم شـوقا اليك
وحنت الى حكمك الأعـدل

تناديك عن كمال مسرف
وتـدعوك عن سقم معـضل

وكم لك فضل على أهلها
فسمتك بالأفضل المفضل

وقد جئت منها رسولا اليك
فكن بالرجوع لها مرسل

فأنت فتاها ونعم الفتى
وأى فتى كان الا على

وقد وجه اليه قصيدة أخرى رائية مطلعها : -

سافر فوجه العيد سافر
فلترجعن وأنت ظافر

ولتظهرن على عدو
ك ان حزب الله ظاهر

وفى هذه القصيدة يشير الى حياة الورع والزهد التى انصرف
اليها الأفضل : -

كم ليلة أحيتها
نام الأنام وأنت ساهر
لله فيها قائما
وعلى سواك الكأس دائر

ولهذا نرجح أن تكون هذه القصيدة قيلت حوالى سنة ٥٩١ هـ
اذ أن انصرافه عن اللهو ، وترك الملذات كان فى هذه السنة .
وقد أوضحت فى الفصل السابق أن الصلة قد توطدت بين
الشاعر وبين الأفضل حتى أن الأفضل استدعاه الى سوريا كما
يفهم ذلك من قصيدته التى مطلعها : -

قمر بات بين سحرى ونجرى
وخيول الدموع باللثم تجرى
وفىها يقول :

هو فى الدست جالس وعطايا
ه الى الخلق والأقاليم تسرى
أنا ممن سرت اليه وجازت
كل بر وجاوزت كل بحر
طرقتنى فى كل ليل بصبح
وأنتنى فى كل عسر بيسر
جل مقدار ذكره لى على البع
لقد جل فى البرية قدرى
وفى قصيدة أخرى دالية مطلعها : -

عاد قلب المشوق اذ عادت عيده
ووفى وعده ووافت سموده
وقد أشارت بعض نسخ الديوان الخطية الى أن هذه القصيدة
مدح بها الشاعر الملك العزيز ، ولكن الظاهر أنها فى مدح الملك

الأفضل لأنه يشير في أحد أبياتها الى الجفوة التي كانت بين الأفضل وأخيه العزيز فيقول : -

خمدت نار من عصاه ونور الـ
دين هيهات ليس يخشى خموده
بعده لا عصاه عاص ولا يخـ
فق في الخافقين الا بنوده

و « نور الدين » هو لقب الملك الأفضل ، وقد أشار في هذه القصيدة الى حياة التنسك والزهد : -

ملا الليل بالتهجد حتى
فاض عنه ركوعه وسجوده

والمعروف أن الملك العزيز كان ماجنا عابثا ، ولم ينصرف الى العبادة والزهد ، ولكن الأفضل هو الذي انصرف اليهما . وربما كان الشاعر قد أعد هذه القصيدة ليمدح بها العزيز ، فلما حضر الأفضل الى مصر بعد موت العزيز غير الشاعر بعض أبياتها وزاد عليها ثم وجهها الى الأفضل .

ولم يدم حكم الأفضل طويلا في مصر فسرعان ما حل العادل محله ، وغادر الأفضل مصر ٥٩٦ هـ حيث قضى بقية حياته في التقشف والزهد ، ولا نظن أن الشاعر قد وجه اليه أية قصيدة اذ أنه لا يكن أى تقدير للنجوم الآفلة .

انتقال الملك من أسرة صلاح الدين :

لما قبض العادل على زمام الأمور في مصر عمل على أن يقضى على ملك أبناء أخيه ، ويمكن لنفسه ولأولاده من بعده على نحو ما فعل « صلاح الدين » ، فقسم الملك بين أبنائه واحتفظ لنفسه بنوع من

السيادة العليا ، فأصبح ابنه الكامل أميرا على مصر وابنه المعظم عيسى امتدت امارته من العريش الى حمص ، كما تولى الأشرف موسى البلاد الشرقية .

ولكن البلاد فى عهده لم تسلم من غارات الصليبيين وافسادهم ونهبهم ففي سنة ٦٠٠ هـ تعرضت مدينة « فوة » احدى البلاد المصرية لغارة مفاجئة من أسطول الفرنج ، فأقاموا بها خمسة أيام يسبون وينهبون ، وعساكر مصر مقابلهم ، وقد صالحهم العادل من جديد ، وجدد الهدنة لخمس سنوات أخرى بعد انقضاء الهدنة الأولى وأعطاهم بعض البلاد ، وشجعهم ما بين الأمراء والملوك المسلمين من تفكك أن يعيشوا فى الأرض فسادا ولكن الشعب العربى بعامته وفلاحيه خرجوا للمقاتلة بعد أن فر القواد والأمراء فهزموهم هزيمة منكرة .

وقد تعرضت البلاد فى عهد العادل لهزة اقتصادية عنيفة فكثرت الأوبئة والمجاعات ، وقل النيل ، ولم تستطع الحكومة أن تتصرف فى مياهه لانعدام الوسائل العلمية ، وانصراف الفلاح عن العناية بأرضه ، وتعسف بعض الحكام ، وكانت أشد المجاعات فتكا فى مصر سنة ٥٩٧ هـ فقد هرب الناس ، وانعدمت الحبوب ، واشتد البلاء ، وكتب العماد الأصفهاني فى ذلك يقول : - « اشتد الغلاء وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى فكيف الضعيف ، ونحف السمين فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة على الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم ، تسترق الجياع باللقم » (١) .

(١) مرآة الزمان ج ٨ : ٤٧٧ .

موقعة دمياط :

وفى سنة ٦١٤ هـ ١٢١٨ م تدفقت جموع الصليبيين الى «عكا» استجابة لملك روما الذى كان ذا مكانة عظيمة بين ملوك أوروبا ، وتمكنوا من نهب البلاد وأسر ما لا يحصى سوى ما قتلوا وخربوا وأحرقوا (١) . ثم ارتحلت الجنود الصليبية فى سفن صوب مصر ، وفى صفر سنة ٦١٥ هـ ألقى الأسطول الصليبي مراسيه أمام دمياط على الشاطئ الأيسر للنيل ، وبذلوا كل جهد مستطاع ليتغلبوا على برج السلسلة ، ودام حصارهم أربعة أشهر ، وقد استطاع الملك الكامل أن يثير فى نفوس حامية دمياط روح الجهاد والحماسة الدينية حتى خسر الصليبيون كثيرا من أسلحتهم ، ولجئوا الى اقامة برج ضخيم من الخشب نصبوه على سفينتين يصل بينهما جسر وحاملات ، وبهذا الحصن المتحرك استطاع الصليبيون أن يستولوا على برج السلسلة ، فلما ملكوا برج السلسلة قطعوا السلاسل لتدخل السفن من البحر الى النيل ، ويتحكموا فى البر فقطع الكامل عليهم غرضهم باقامة جسر عظيم فى النيل ، ولكنهم قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى قطعوه ، فأغرق الملك الكامل بعض السفن الكبيرة فى النيل حتى سدت عليهم الطريق - فما أشبه الليلة بالبارحة - وما أشبه ما حدث فى قناة السويس بما حدث منذ ثمانية قرون تقريبا ، وجرت محاولات لم يظفروا من ورائها بطائل غير أن الملك العادل لما بلغه سقوط برج السلسلة فى يد الصليبيين حزن حزنا شديدا عجل بوفاة فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ . وقد تتبعت قصائد ابن سناء التى اشتمل عليها الديوان فى مدح الملك العادل فوجدتها ثمانى قصائد واحدة منها دالية مطلعها : -

(١) الكامل ج ٩ : ٣١٥ .

على كل حال ليس لى عنك مذهب
وما لغرامى عند غيرك مطلب

ويبدو أنه مدحه بها بعد سنة ٥٩٧ هـ أى بعد انتهاء القحط
وعودة مياه النيل لأن الشاعر قد تحدث عن ذلك وجعله هو الذى
أعاد النيل للبلاد : -

أعدت لأهل النيل رى بلادهم
بأبجر نيل عندها النيل مذنب

هنيئاً لمصر وصله ووصلوه
فقد كان يؤذى مصر منه التجنب

وقد مدحه بقصيدة جيمية مطلعها : -

سجاليل همى بالعذار الذى سجا
وعرج قلبى نحوه حين عرجا

وكانت هذه فى حياة صلاح الدين ، وقد مدحه فيها بالبطولة
والقوة فى مجالدة الأعداء ، ونزالهم ، وذلك لأن العادل كان كثيراً
ما تسند إليه قيادة الجيوش لآخاماد الفتن ، أو فى ملاقاته الصليبيين ،
ولذا فهى من القصائد الحماسية : -

يجر جيوشا يركد النقع بينها
فلم يلق من بين الأسنة مخرجا

وان أظلمت من نغمه جنباته
فكم صبح سيف بينه قد تبلجا

وما هو جيش مثل ما يزعم العدا
ولكنه بحر الحديد تموجا

وما ذاك لمع للدروع ولا انظبي
ولكنه جمر العزائم أججا

غدا سيف سيف الدين خدا موردا
وان كان ثغرا بالفلول مفلجا

وكل القصائد الأخرى التى مدحه بها قد قيلت بعد توليته
أمر البلاد وتخلصه من منافسيه ، ومدحه فيها بالكرم والقوة فى
مجالدة الأعداء ، والقدرة على التغلب على الأعداء ، والدهاء والمكر
الى غير ذلك من الصفات التى ترسم وتحدد معالم شخصية العادل ،
وبعض هذه الأوصاف صريح واضح ، وبعضه يفهم من بين السطور .
ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة الديوان .

الملك الكامل محمد :

كان الملك الكامل محمد مشغولا بلقاء الصليبيين فى دمياط
لما بلغه نبأ وفاة أبيه الملك العادل ، وكان من الممكن أن يتبدد خبر
هذه الوفاة فى حماسة الحرب والدفاع عن البلاد لولا ما دبره
« ابن المشطوب » أحد أمراء الأكراد من الاطاحة بالكامل وتولية
أخيه الفائز مكانه ، فلما بلغ الكامل خبر هذه المؤامرة نسي كل شئ
عن الجهاد وعن الدفاع وسارع ليقضى على المؤامرة الأثيمة فأصبح
الفرنجية فلم يجدوا أمامهم من المقاتلة أحدا ، اذ أن العسكر حين
علموا بفقد سلطانهم وذهاب قائدهم تفرقوا أيدي سبا ، وركب كل
منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدرُوا على أخذ شئ من
خيامهم وذخائرهم الا القليل ، وتركوا ما بقى فوقعت الأسلحة
والذخائر ، كما وقعت دمياط أيضا فى أيدي الصليبيين صفوا
عفوا ، بغير تعب ولا مشقة ، اللهم الا ما بذله أهل دمياط من جهد
ومقاومة لم تغن عنهم شيئا أمام العدد والعدد فكثرت فيهم القتل

والجراح والامراض ، وسلموا البلد فى ٢٧ من شعبان سنة ٦١٦ هـ (١) .

استرداد دمياط : وقد شرع الصليبيون فى تحصين دمياط وعمارتها بعد استيلائهم عليها حتى أصبحت منيعة لا ترام . وقتلوا من أهلها ما شاءوا ، ونهبوا من أموالها كل ما استطاعوا ، ثم بثوا سراياهم فى البلدان المجاورة يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل « محمد » فقد أرسل الى أخويه ، وإلى ملوك الاسلام يستنجدهم ويستغيث بهم (٢) ، وسرعان ما وجدت دعوته مكانا فى نفوس ملوك الاسلام ، وتناسوا ما بينهم من الأحقاد والحصام ، وتتابعت النجدة الى الكامل ، وبعد أن كان يسعى حثيثا للصلح مع الفرنجة ، ويعرض عليهم أن يتخلوا عن دمياط على أن يستولوا على « بيت المقدس » و « عسقلان » و « طبرية » و « صيدا » و « جبلة » و « اللاذقية » وجميع ما فتحه صلاح الدين (٣) ، والصليبيون يغالون ويغالبون ، ويمكرون ويرفضون اضطر الى مقاومتهم ومصابرتهم ، وأقام الاستحكامات عند المنصورة ، وتقدم الفرنج وقت الفيضان صوب معسكر الكامل واتخذوا طريقهم بين الترع ، فقطع الكامل عليهم الجسور ، ففاضت المياه ، وحصر الصليبيون ، وضاق بهم المقام ، وراموا العودة فلم تمكنهم الارض المبللة من السير فيها ، وفى ذلك فى عضدهم . . . ووقعت النجدة والسفن القادمة لعون الفرنج فى أيديهم ، فلما تيقنوا أن المنايا قد كشرت عن أنيابها ، ذلت نفوسهم ، وتنكست ضلبانهم ، فطلبوا الصلح من الكامل على الجلاء من دمياط بلا قيد

(١) مصر فى عصر الصليبيين : ١١٤ .

(٢) الكامل : ج ٩ : ٣١٤ - ٣١٨ .

(٣) الكامل : ج ٩ : ٣١٤ - ٣١٨ .

ولا شرط ، وتم النصر للمصريين ، وقدمت التهاني للملك الكامل
من الشعراء . وجلس الكامل محمد وأخوته بعد رحيل الفرنج عن
دمياط مجلس أنس بمدينة المنصورة (١) فأمر الملك الأشرف موسى
جارية له يقال لها (ست الفخر) فغنت على عودها هذه الأبيات : -

ولما طغى فرعون عكا بغيه
وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها كررى فشق ذلك على
الملك الكامل وأمرها فسكتت ، وقال لجاريته هو « غنيه أنت »
فغنت على العود : -

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا وتجدنا

أعباد عيسى ان عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا

فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسمائة دينار ، ولجارية أخيه
الأشرف بمثلها ، وتوافد الشعراء يهنئون الملك الكامل بالنصر ،
ومنهم « شرف الدين بن عنين » ومن قصيدته قوله : -

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آباءنا والقنا اللدنا

(١) الادب المصرى : د . عبد اللطيف حمزة ٨٣ .

غداة التقينا دون دميـاط جـفلا
من الروم لا يحصى يقيننا ولا ظنا
كما مدح « كمال الدين بن النبيه » الشاعر المصرى الملك
الأشرف موسى بقصيدته الطويلة التى منها : -

للذة العيش والأفراح أوقات
فانشر لواء له بالنصر عادات

أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وآراء ورايات

وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
ومن الشعراء كذلك « البهاء زهير » وقد بعث لملوك الأيوبية
وهم بالمنصورة قصيدة رائعة منها : -

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر

فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدرة الحمد والشكر

يقول لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شيء من النثر (١)

ألا فليقل ما شاء من هو قائل
ودونك هذا موضع النظم والنثر (٢)

(١) النثر : هو النثر وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة .

(٢) الادب المصرى للدكتور عبد اللطيف حمزة : ٩٠ .

وبالطبع ليس لابن سناء فى هذا المقام شىء اذ أنه كان قد واره الثرى قبل هذه الحادثة بعشر سنوات ، ولكنه كان قد مدحه قبل ذلك ، وأشاد ببطولته فى الحوادث التى تعرضت لها البلاد فى اعتداء الصليبيين سنة ٦٠٠ هـ بقصيدة مطلعها : -

على خاطرى يا شغله منك أشغال
وفى ناظرى يا نوره منك تمثال

وقد أشار الى بطولته وصولته فى وسط المعارك ، وقتل أعدائه بالرعب والذعر فقال : -

بأسيافه فى الحرب يخترم الوغى
وتقتل أقيال وتبطل أبطال

جنى غسل الفتح المبين برمحه
ولا غرو أن اسم الردينى عسال

له صولة الرئبال فى مائس القنا
ولا ريب أن ابن الفضنفر رئبال

إذا صال فى يوم النزال تفصلت
لأعدائه بالرعب والذعر أوصال

ويعول جرح القرن منه كأنما
به صوت ضرب السيف للجرح أعوال

ويطر به صوت القراع وانه
له طربات وهو للقوم أهوال

وليس له بعد هذه القصيدة سوى أبيات يعتذر له فيها عن توليه ديوان الجيش والاشراف عليه :

قد عجز المملوك عن خدمة ثباته في مثلها طيش
للجيش ديوان ومالى به أنس ولا عندي له عيش
وصرت مهزوما فلا تعجبوا من واحد يهزمه الجيش



ومن الذين حظوا بمدح ابن سناء من أبناء البيت الأيوبي الملك
المعظم « تورانشاه » فقد مدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها : -

تقنعت لكن بالحبيب المعجم وفارقت لكن كل عيش مذم

وقد أثار هذا المطلع ضجة النقاد فمنهم من هجنوا التقنع
بالحبيب ، ومنهم من دافع عنه ، وقد جعل منها ثلاثة وعشرين بيتا
للغزل ثم حشدها بالاشارات الأدبية والتعبيرات الغزلية التي
استعملها الأقدمون ، ثم مدحه بالمألوف من الصفات ولكن في ثوب
خاص به فهو المعطى الممالك مجدا صميما ، وملوك البرايا يخبرون
له رهبة ، ويسجدون في حضرته ، ويلثمون الأرض بين يديه حتى
تظهر أثر مباسمهم عليها ، وقد غدا ينصر بالرعب حتى ليحمى
بأسه حماه ، وان سمعته اذا تعوذ بها الطير أمن شر اعتداء النسور
الكايرة عليه ، وقد أربح الكفار ، وأمن في ظله الاسلام ، وقد تعلم
السيف منه العزم والحزم ، ودروع الأعداء لا تحميهم من سهامه
بل انها لتصير مثل البرود تمرق فيها سهامه في يسر وسهولة ،
واذا صاد غيره الغزلان فهو لا يصيد غير الضياغم ، وركض الخيل
عنده نوع من الاستراحة ولبس الدرع نوع من التنعم ، وأجمل
ما يتطيب به نفع المعارك ، وألین مهاده ظهر خيله وابله ، وكثير
من أهل الصليب اذا رأوه أسلموا . وهي قصيدة حماسية تمجد
البطولة ، وتشيد بالعزم والحزم الذي اتصف به الملك المعظم

« تورانشاه » أخو صلاح الدين وقد بلغت هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتا . جاء فيها قوله : -

غدا بأسه يحمي حماه وقد غدا
به الدهر منه يستعيز ويحتمي

فلو ذكرته الطير أو سمت اسمه
لما راعها في جوها بأس قشعم

أخو فتكات لا تزال سيوفه
تخط سطور النصر في جبهة الكمي

فقد أرسلت حتفا إلى كل كافر
وقد أرسلت فتحا إلى كل مسلم

وأصبح يعدى السيف تصميم عزمه
فمن ذا يسمى بالحسام المعهم

وأسمهم في صد كل ماردع
فما الدرع منها غير برد مسهم

ويحتمل أنه وجه إليه هذه القصيدة بين سنة ٥٧٤ إلى ٥٧٦ هـ إذ أن ذلك هو الوقت الذي استقر فيه تورانشاه في الاسكندرية وظل حتى مات سنة ٥٧٦ هـ .

وبعد : فقد استعرضت في هذا الفصل موقف ابن سناء من الحروب الصليبية التي جرت في عهد خلفاء صلاح الدين ، وتعرضت لبعض الشخصيات الايوبية التي مدحها ابن سناء الملك ، وقد وجهت اهتمامي لإبراز الناحية الحماسية في شعره التي خلقتها الحروب

الصليبية . . . وحقا ان له مدائح أخرى وجهها الى شخصيات لمعت
آنذاك فى الحروب الصليبية مثل الظاهر غازى ، والمظفر تقى الدين ،
ولكنها لا تختلف كثيرا عن تلك القصائد التى تعرضت لها فى منهجها
ولا فى الصفات التى كان يغدقها على ممدوحيه .

وسوف أخص الفصل القادم بالحديث عن أغراض شعره
الأخرى التى تحدث فيها ، حتى تتضح صورة ابن سناء الشاعر فى
ذهن القارئ .

شعر ابن سناء الملك

أغراض شعره :

- ١ - المدح
- ٢ - الغزل
- ٣ - الرثاء
- ٤ - الهجاء
- ٥ - الوصف
- ٦ - الفخر
- ٧ - الزهد
- ٨ - الاعتذار والاستعطاف
- ٩ - الحكمة

شعر ابن سناء الملك

الأغراض التي تعرض لها :

١ - المدح :

من تتعبنا لديوان ابن سناء نرى أن ما اشتمل عليه من الشعر يقرب من ثمانية آلاف بيت . خص المدح منها ما يقرب من خمسة آلاف وهو ما يزيد على نصف الديوان ، ثم تلاه ما يقرب من ألف بيت في الغزل والمجون ، وهذان هما الغرضان الرئيسان في الديوان ، وقد ظهر إلى جانبهما أنواع أخرى من شعره كالرثاء والهجاء ، والفخر ، والحكمة والوصف ، والزهد ، والاعتذار والشكوى .

وقد تأثر ابن سناء تأثرا واضحا بالحروب الصليبية ، وانعكس في شعره أثرها فأدى دوره في معركة التحرير ، وكانت له حظوة

وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء ، وطبع بطابع الحماسة
والبطولة فيشيد بجهاد السلاطين وبطولتهم ، ويدفعهم الى خوض
المعارك ، ويبدى مهارتهم فى الضرب بالسيف والطعن بالرمح .
وقد تقدم من النماذج ما يؤيد ذلك .

٢ - الغزل :

أما غزله فقد استطعت أن أقسمه ثلاثة أقسام أولها : غزل
تقليدى (نسيب) خالص نهج فيه منهج الأقدمين ويتجلى هذا
الاتجاه فى مطالع مدائحه - التى كانت مظهرا عاما لدى شعراء
هذا العصر - ويتحدث فى هذا النسيب عن الأوصاف القديمة
المألوفة كالوصال والهجر ، والوشاة والعاذلين ، والقدر السمهرى ،
والشجر الأقحوانى ، والطبيب والنشر ، وصورة البدر واشراقه
الشمس ولكن فى روح مصرية يتجلى فيها الحفة وروعة الافتنان ،
وحسن السبك ويسرف ابن سناء فى هذا النسيب فتبلغ مطالعه
أحيانا الثلاثين بيتا ، حتى لنظن أنه هو الغرض الأساسى .
استمع معى الى مطلع قصيدته فى مدح القاضى الفاضل : لقد بدأ
الحديث عن ليلة الوصل التى هى أحلى ليالى العمر ، والتى مضت
مسرعة فأحس بها قصيرة ولم يملك الا أن يتمنى بقاء النجم ، وعدم
قدوم الصبح من سفره فقال : -

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر
أحسننت الا الى المشتاق فى القصر

يا ليت زيد بحكم الوصل فيك له
ما أطول الهجر من أيامه الآخر

أو ليت نجمك لم تقفل ركائبه
أو ليت صبحك لم يقدم من السفر

أو ليت لم يصف فيك الشرق من غبش
فذلك الصفو عندي غاية الكدر

والقسم الثاني : غزل عفيف رقيق : يفيض عذوبة ورقة ،
وينساب في يسر وسهولة ، ويتجاوب فيه مع مشاعره وعواطفه
يغترف فيه من بحر ، ويصقل ما ينحته من صخر ٠٠ انه يحكى
نبضات قلبه ولوعة نفسه ، وفيض احساسه استمع الى قوله : -

أواصل اللثم من فرع الى قدم
وأوصل الضم من صدر الى كفل

وبات يسمعي من لفظ منطقته
أرق من كلمي فيه ومن غزلي

وددت أعضائي أسماعا لتسمعه
ولو تحملن فيه وطاة العذل

ودمعة الدل تجريها على جسدي
فهل رأيت سقوط الطل في الطلل

ونلت ما نلت مما لم أهم به
ولا ترقى اليه همة الأمل

ومر والليل قد غارت كواكبه
لا نوى الصبح تطفيلاً على طفل

لم أسحب الذيل كي أمحو مواطئه
لكنني قمت أمحو الخطو بالقبيل

يا ليلة قد تولت وهي قائلة
لا تنظمني مع أيامك الأول

فهذه المعاني الرقيقة التي تحكى تلك التجربة الذاتية تنساب
فى خفة ورشاقة زادتها العبارات والقوالب الفنية روعة وسحرا ،
فما أحلى هذه الموسيقى التي تنساب من حروف الصفير فى الكلمات
والعبارات : « يسمعى - من لفظ - غزلى - أسماعا - لتسمعه -
العذل - جدى - سقوط » لقد تكررت السين والزاي والمدال والظاء
والصاد وتوالى فانبعثت منها نغمات موسيقية راقصة ، فضلا
عن الايحاءات الجميلة التي تستتبع تلك التعبيرات الحلوة ، فكل
ثغرة من ثغرات جسمه يود أن تكون أذنا لتنعم بحديثها ، فكأن
حديثها هاروت ينفث فيه سحرا ، وهذا جسده يذوب بين يديها
فلا يبقى منه الا طلل بينما تشتعل روحه وتتوهج نفسه ، وهذه
دموع الدلال تتساقط على جسده المتهاك فلعله كان يفترش
صدرها ، أو يضع رأسه على ساقها فتتساقط دموعها على
جسده ، انها لوحة فنية انه اندماج الأرواح ، فليست متعة جسدية
فحسب ، ولكنها متعة روحية ونفسية معا لذا لم تزل تلك المتعة
بزوال أثرها ، فما زال يذكر تلك السعادة بعد ذهاب صاحبته ،
وكان حريصا على استبقاء تلك الذكرى فوجدها جديرة أن ينحني
على الأرض ويلثم خطواتها التي تركت أثرا فوقها .. « لكننى قمت
أمجو الخطو بالقبل ، .. وهذه ليلة العمر لذا لا ينبغى أن تحسب
مع الليالى الأخريات »

ومما زاد العبارات جمالا وروعة هذا الانسياب الذى يتمثل
فى حروف المد التي زادت عدتها فى هذه الأبيات « أواصل - الى
وأوصل - وبات - يسمعى - منطق - كلمى - غزلى - أعضائى -
أسماعا - لتسمعهو - .. » الخ . ان حروف المد وتواليها فى هذه
الأبيات أكسبها حلاوة وطلاوة ، وزاد فى جمال النغم الموسيقى الذى
ينبعث عنها ، وهى توحى بالتعلق والرغبة واللذة حتى لـيـود
ألا تنتهى الكلمة ذات الدلالة على المعنى .

والعاشق المتيم يجد صدى هذه الأبيات فى نفسه ، ويحس بالترجمة الصادقة لما ينطوى فى قلبه ، وتزیده تعلقا بها ، وتكرارا لها اذا كان قد مر بهذه التجربة ، فأمضى ليلة سعيدة مثل هذه الليلة مع من يهوى أو من يعشق .

القسم الثالث : غزل فاحش وتهتك سافر :

وقد كثر هذا اللون فى شعر هذا العصر لانتشار الشذوذ الجنسى ، حتى أصبح اللون المفضل الذى يجذب أنظار القارئین ويرجع ذلك الى كثرة سببى الحروب الصليبية ، ووجود الغلمان من الترك والأكراد وهم صباح الوجوه ، وانتشار البطالة والفراغ لدى بعض الناس . وكان ابن سناء واحدا من شعراء عصره ، استهتر كما استهتروا ومجن كما مجنوا ، فتغزل بالمذكر ، وتغزل بعمياء ، وتغزل بشائب ، وتغزل يرومى أعجمى - وهو فى هذا كله يثبت للشعراء أنه يستطيع مجاراتهم ، ولا يعز عليه غرض من الأغراض . واستمع اليه يتغزل فى عمياء : -

ان الكمال أصاب فى محبوبتى
لما أصاب بعينه عينيهما
زادت حلاوتهما فصرت تخالها
وسنى وقد كسر الكرى جفنيها
وكذا علمت وللدبيب حلاوة
فكأننى أبدا أدب عليها
ولئن عدمت السكر من الحاظها
فلقد وجدت السكر فى شفتيها

وقد صرح كثيرا بما يستقبح ذكره ، وديوانه ذو حظ عظيم من المجون والاستهتار ، والتصريح بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، مما لا يجل ذكره هنا .

٣ - الرثاء :

وقد بلغت قصائد الرثاء فى ديوانه ثلاثة وعشرين قصيدة ،
وقد وزع هذه القصائد بين أهله كأبيه وأمه وجدته وبعض أقاربه
من جهة ، وبين أصدقائه الذين لم تربط بينه وبينهم المطامع والأهواء
كعفيف التلمسانى ، والسيد شريف أبى القاسم عبد الرحمن الحلبي ،
وصديقه وثاب ، وبين جاريتيه التى أحبها من أعماقه ، وبذل النفس
والنفيس لانقاذها من مخالب الموت من جهة أخرى ، كما أن بعض
قصائده كان عزاء ومجاملة كعزائه الأسعد بن ممتى .

ومن قصائده فى الرثاء تلك القصيدة التى رثى بها أمه
ومطلعها :

صح من دهرنا وفاة الحيا فليطل منكما بكاء الوفاء

وهى قصيدة تبلغ تسعة وتسعين بيتا ، وفى هذه القصيدة
يضيق صدره ولا ينطلق لسانه فيقول : -

أنت عندي أجل من كل تآبين صفت بالثريا رثائي
فى ضميرى ما ليس يبرؤ شعرى لا ولو كنت أشهر الشمسراء

ثم يخاطب القبر ويناجيه فيقول : -

واذا ما دعوت قبرك شوقا
فبحقى ألا تجيبى ندائى

هل درى القبر ما حواه وما أخـ
ففاء من ذلك السننى والستاء

فلكم شرف باهر النور منه
فرايت الاغضاء فى اغضائى

ثم يقول : -

اذكرنى يوم القيامة يا أم
م لئلا أعود فى الأشقياء

واشفع لى فجنتى تحت أقدا
مك من غير شبهة وامترء

فقربا لا شك يأتىك عنى
بقدومى عليك وفد الهناء

عجل الله راحتى من حياتى
انها فى الزمان أعظم دائى

واذا ما الحياة كانت كمثل الداء
كان الممات مثل الدواء

ومن دراستنا لراثه نستطيع أن نصل الى خصائص هذا الفن
عنده .

١ - يتجلى الحزن الحقيقى ، والأسى العميق فى رثاء أقربائه
الأدنين فيتجاوب فيه مع واقعه النفسى ، وان خالفه التوفيق فى
التعبير أحيانا .

٢ - وحين يرثى أصدقاءه تحس بجو الأسف والحزن الفكرى
الهادى الرزين .

٣ - كما ينبعث من العزاء جو المواساة والتصبر والسلوان ،
وهو مخالف حتما لجو الحزن والأسف .

٤ - يختلف معجمه اللغوى باختلاف المراثى ففي أقربائه ألفاظ
حزينة وعبارات باكية ، صادرة من قلب باك حزين ، وفى أصدقائه
ألفاظ رزينة ، وعبارات هادئة صادرة عن عقل وتأمل ، وفى رثاء

جاريته ألفاظ وعبارات ملتاعة فيها الحركة ، وأستعذاب الألم ، وفي
العزاء ألفاظ السلوان وعبارات التصبر ، والعبارات متجاوبة مع
ما توحيه المجاملة .

٥ - ينعكس على أسلوبه أثر الثقافة والقراءة ، كما تجلى في
رثاء أمه حين استبد به بكاء الأطلال والدمن .

٤ - الهجاء :

لم يعد النقاد قديمهم وحديثهم « ابن سناء الملك » من شعراء
الهجاء ، وذلك لمكانته الاجتماعية من ناحية ، ولقلة أهاجيه التي
اشتمل عليها الديوان من ناحية أخرى . وحقيقة لم تزد مقطعاته
وقصائده عن مائتي بيت ، غير أنني أعده من الهجائيين ، أو أن في
مقدوره وفي استعداده الحفي ما يجعله في عدادهم ، فلا تنقصه
سلطة اللسان وحدته ، ولا تعوزه القدرة على السخرية والاستهزاء ،
كما أن له قدرة على النقد الاجتماعي اللاذع ، وهو وإن لم يبلغ
بأهاجيه مبلغ جرير والفرزدق ، ولا بتصويره الساخر (الكاريكاتيري)
مبلغ ابن الرومي إلا أنه جاراهما بل وفاقهما ذرابة لسان ، وقدرة
على الشتم والسباب . استمع اليه يطعن في شرف شخص يسمى
الرضي فيتهمه بأنه كان يقود على نفسه فأصبح يقود على زوجته ،
ويشبهه بالتيس الذي يستعير قرنين من نعجته فيقول :

فكان يقود على نفسه	فصار يقود على زوجته
وكيف يغار على عرسه	فتى لا يغار على مهجته
ولا بأس بالتيس أن يستعي	ر قرونا على الرأس من نعجته
فأشبعنا الله من هجوه	وجوعنا الله من عجته

٥ - الوصف :

لم تتجاوز أبيات الوصف فى ديوانه مائة بيت الا قليلا ومع هذا فقد وصف البستان ، ووصف القصر ، والفرس ، والجلنار ، والسوسن ، كما وصف الجرب الذى أصابه ، ومنظرته الجميلة ووصف قوما سكارى ، ووصف جارية صافية السواد واستمع اليه ينسجم مع الطبيعة ويتجاوب مع نفسه تجاوبا تاما فى هذا المقطع عن بستانه حين هاج الذكريات فراح يقبل الطل ويلثم الزهر ، وكأنه ينال ذلك من لى المحبوب وثغره ، حتى كأن أصحابه بين لائم وبين عاذر فيقول :

جلست ببستان الجليس وداره
فهيح لى مما تناسيته ذكرا

أقبل ذاك الطل أحسبه اللمى
وألثم ذاك الزهر أحسبه الثفرا

وكم لائم لى فى الذى قد فعلته
وكم قائل دعه لعل له عذرا

ووصفه بصفة عامة وان كان قليلا الا أنه يدل على قدرته واستعداده الكامن القوى للنبوغ فى هذا الغرض .

٦ - الفخر :

ليس له فى الفخر سوى قصيدتين . أولاهما عاتب فيها الدهر لأنه يحاول صده عن مطلبه ، ويصطنع له العقبات ثم يفتخر بآبائه ، وبانتسابه الى والده الرشيد الذى فاق به الأنام لعلو منصبه ونصابه ، حتى أنه يستطيع بفضل ذلك النسب أن يتخذ من النجوم له نعلا ، ومن الهلال مركبا يجرى به فى نهر المجرة فيقول :

أيدفني الدهر عن مطلبى ويكثر من لومه المظل بي
ولم يدركنى كثير الأباء وأن الرشيد المرجى أبى
وأنى به قد فخرت الأنعام بفضل النصاب مع المنصب
وأنى لو شئت من سعده لأنعمت رجلى بالكوكب
ولو شئت كان لى الهلال بنهر المجرة كالمركب

وهكذا يتسم فخره بالمبالغة الشديدة ، والغلو الزائد .

وفى القصيدة الثانية لا يرهب الدهر مهما ناصبه العدا بل
ولا يخاف الموت الزؤام اذا عدا عليه ، بل ان الدهر لو حاول أن
يمد له يدا لينال منه لرد اعتدائه باعتداء مثله . . . وهى قصيدة
مشهورة منها :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى
وغير يهوى أن يكون مخلدا

ولكننى لا أرهب الدهر ان سطا
ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

ولو مد نحوى حادث الدهر طرفه
لحدثت نفسى أن أمد له يدا

توقد عزمى يترك الماء جمرة
وحلية حلمى تترك السيف مبردا

وفرط احتقارى للأنام لأننى
أرى كل عار من خلا سؤددى سدى

وأظما ان أبدى لى الماء منة
ولو كان لى نهر المجرة موردا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا ، وهى من أشهر قصائده على الإطلاق ، ولسهولة ألفاظها ، وبعدها عن التوعر كانت من بين المختارات من شعره ، ومن شعر العصر الأيوبي لتلاميذ المدارس ، وقلما خلا منها كتاب يختار من شعر ابن سناء ، وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم ، وما لديهم من طموح كاذب ، ولهذا نرجح أنه نظمها فى سنن شبابه قبل أن يجابه حقيقة الحياة التى جعلته يتوودد الى الملوك والرؤساء .

٧ - الزهد :

لم يكن ابن سناء من شعراء الزهد والتصوف على الرغم من أن الحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو الى شىء من الاستسلام للمقادير ، والاتجاه الى الله والزهد فى الدنيا . وقد نبغ فى الزهد والتصوف شاعران عظيمان هما ابن الفارض ومحيى الدين بن عربى وهما اللذان رفعا علم التصوف فاهتدى به المتصوفون من بعدهما .

أما ابن سناء فكان يثوب أحيانا الى رشده ، فتستيقظ أحاسيسه وتصفو نفسه ، فيخاف الله ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ، ويذكر غرورها وباطلها ، فينطلق ذلك فى نغم شعري يعبر عن تجربة انسانية صادقة فيقول :

قد كان ما كان من جهلى وطفيانى وجاء ما جاء من نسكى وإيمانى

وسر من بعد غم النفس بى ملكى
واغتم بعد سرور النفس شيطانى

فما المعصم بعد الزهد من أربى
ولا المقنع بعد النسك من ثانى

ضحكت فيها واني قد بكيت بها
فالجهل أضحكني والعقل أبكاني

ثم يقول :

اليك عنى يا دنيا اليك فلى
فى وصل مثلك شأن المبعض الشانى

نسيت ألفا بخيلا ليس يذكرنى
بذكر رب كريم ليس ينسانى

وعفت دنيا تسمى من دنائها
دنيا والا فما مكروها الدانى

وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى
واخترت طاعة من لو شاء أنشانى

سلنى عن الدهر لا تسأل سوى به
ولا تسلى عن همى وأحزانى

فى وحشة القبر والود المقيم به
شغل لى عن دارى وبستانى

أقول دارى وجيرانى مغالطة
والقبر دارى والأموات جيرانى

سأوسع القبر بالأعمال أصلحها
جهدى وألبس زهدى قبل أكفانى

وهى قصيدة تقع فى واحد وثلاثين بيتا ، وما عداها فمقطعات
لا تتجاوز خمسة الأبيات ، يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته
للنفس ، أو عن الدنيا ودنائها ، أو عن الآخرة وتفرغ قلبه لها ،

أو عن الزمان وعدم وفائه ، هي خطرات تقف الى نفسه عندما تتشبع
من الباطل وتحن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف
مؤلمة من الحياة ، فيعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره وأحاسيسه .

٨ - الاعتذار والاستعطاف :

ويلي الزهد في الديوان ما اشتمل عليه من بعض القصائد
والمقطعات في الاعتذار والاستعطاف ، وعلى الرغم من أنه كتب
قصيدة طويلة الى القاضي الفاضل حين غادره وهو مريض في
دمشق والتي مطلعها :

تذكرت أيام الصبابة والصبأ
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وهي قصيدة تقع في واحد وخمسين بيتا ، الا أن طابع المدح
يغلب عليها . أما ما ورد في الاعتذار والاستعطاف فقليل نادر ،
وأغلبه مقطعات يرق فيها غاية الرقة ، ويتعد عن الاغراق في
الصنعة ويترك نفسه على سجيتها كاعتذاره لمن عتب عليه في ترك
القيام له فقال :

أمانا فاني من عتابك خائف
وعفوا فاني بالجناية عارف

على أن لي عذرا فان كنت منصفا
فكن قابلا أولا فانك خائف

وما كان شغلي عنك الا لأنسى
بفكري على تحبير شكرك عاكف

وان كان جسمي عند لقياك قاعدا
فان فؤادي قبل لقياك واقف

وهكذا نلاحظ رقة اللفظ ، وخفة الوزن ، وهدوء النغم ، وبساطة الفكرة ، ولكننا لا نعدّه من شعراء الاعتذار لقلة قصائده فيه .

٩ - الحكمة :

لم ترد الحكمة فى شعر « ابن سناء » غرضاً مستقلاً ، وإنما وردت فى تضاعيف شعره ، ولم يجد دافعاً يدفعه الى الغرام بها ، وكان يستمد حكيمته من تجاربه ومواقف الحياة . والحكمة ليست الا موقفاً من الحياة ينطوى على شحنة عاطفية ، وتجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ومثلها كمثال الأمثال العامة تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئاً آخر غير التفكير الفلسفى ، والقضايا العقلية والمنطقية فابن سناء حين يقول فى قصيدته التى رثى فيها جده :

وجنة الخلد بالأعمال تدخلها
لا بالخطوئ كما قالوا ولا القسم

كم قام غيرك للدنيا وقد قعدت
عنه وقامت لك الدنيا ولم تقم

قد عبر فى هذين البيتين عن شعور صادق ، وان بدا فى ظاهره التناقض لأن الصدق والكذب فى مثل هذه الأمور لا يخضع لمبادئ عقلية ، وإنما يرجع الى حالات النفس ومشاعرها ، واختلاف مواقفها من الحياة :

وقوله :

ومن صفت منه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فوق اللوح بالقلم

مستمد من مشاعر التصوف ، وهى مشاعر تمتزج فيها
العاطفة بالخيال وبالنظريات الفلسفية ، ولا تقف عند حدود النظرة
الفلسفية وحدها .

وحظ ابن سناء من الحكمة قليل ، وان تعمق فى جزئيات
المعاني تعمقا عقليا يستوحيه من التلاعب اللفظي ، ومن منافسه غيره
من الشعراء فليس على شئ من العمق فى تأمل الحياة والتدبر فى
شئون الأحياء ، وقل أن يتجه الى استبطان نفسه أو مراقبة عواطفه ،
واستخلاص العبر مما يمر تحت سمعه وبصره (١) .

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر : ١٤٨ .

منزلة ابن سناء في موكب الأدب

ظهر « ابن سناء الملك » في عصر عرف كثيرا من الأدباء ، كتاب وشعراء في مصر والشام وفي العراق ، فقد عاصر في مصر المهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، وعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ ، وابن أبي الأصبع العدواني المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وسيف الدين اليازوقي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

كما ظهر في الشام في هذا العصر كثير من الشعراء منهم « ابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤ هـ ، وبهرام شاه ابن فرخشاه

المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، والشواء الحلبي المتوفى سنة ٦٣٥ هـ ،
وأمين الدين الحلبي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، ونور الدين الأسعردى
المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وصدر الدين البصرى المتوفى سنة ٦٥٩ هـ .

وقد تعددت ألوان الشعراء ومذاهبهم فى هذا العصر فمن
شعراء فنيين ، اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على ما يدره عليهم
من رزق كالقيسراني ، وابن منير ، والعرقلة ، وابن النبيه الى
شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجيش فى أنفسهم
لا يريدون على شعرهم مالا ولا جزاء كالشعراء من الملوك والأمراء
والوزراء .

ومن هؤلاء من ينحدر من العرب الخالص ، ومنهم من ينحدر
من الأتراك أو الأكراد أو القبط .

وفى وسط هذا السيل الجارف من الشعراء والأدباء لمع
« ابن سناء الملك » . ظهر نبوغه وهو لم يتجاوز العشرين من
عمره ، وقد أشار الى ذلك العماد الكاتب فى خريدته ، والقاضى
الفاضل فى رسائله التى حواها « فصوص الفصول » (١) . وعده
« ابن خلكان » أحد الفضلاء الأدباء ، الرؤساء النبلاء وقالوا عنه :
« انه كثير التنعم والتخصص ، وافر السعادة ، محظوظ من الدنيا ،
يجتمع فى مجلسه الشعراء المجيدون ، واستحسن من شعره قوله
فى مدح القاضى الفاضل :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها
لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال ان الخيزرانة قدها
فقولوا له اياك أن يسمع القد

(١) فصوص الفصول : ٥٦ .

كما استحسن قوله :

لا الغصن يحكيك ولا الجؤذر

حسنك مما كثروا أكثر

يا باسم أبدى لنا ثغره

عقدا ولكن كله جوهر

قال لى اللاحى ألم تستمع

فقلت : يا لاحى أما تبصر (١)

وابن سناء واحد من ألمع شعراء العصر ، يرجع فى أصوله الفنية والمعنوية الى ما رجع اليه الشعراء ، وان كانت له شخصيته وطابعه المستقل ، وقد ظهرت اتجاهاته الفنية فى ديوانه ، كما ظهرت فى موشحاته ، فلقد كان حريصا على الجناس اللفظى ، وعلى المقابلة بين المعانى ، والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار ، وتمثل التراث الشعرى القديم ، من ناحية التشبيهات والاستعارات ، ومحاولة الزيادة فيه والاضافة فى الجزئيات اليه ، ومواصلة ما اصطلاح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ، ومن جعل المحبوب مثلا أعلى فى الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد ، وعزل العازلين ، وعذاب المحب وألمه وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر ووصف لونها ، وحببها وأثرها فى شاربيها ، وما تنطوى عليه من لذة ، ومن الإشارة الى الرياض ، واقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، ولقد تغزل فى أشعاره وفى موشحاته بالغلمان وبالأترار منهم خاصة ، كما ظهر فيهما سمات الحضارة وسمات البداوة فى الحديث عن المعشوق .

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان .

وقد شغف ابن سناء بحسن التعليل وبالمفارقات ، وبايراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ، وقد ظل هذا قائما فى الموشحة ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأنه شغل نفسه بتلمس القوافى الكثيرة ، ولذلك كان تجديده فى المعانى ، وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته (١) .

وعلى الرغم من تأثر ابن سناء الملك بالقاضى الفاضل لأن كلا منهما أولع بالزينة اللفظية ، وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى وكلاهما بلغت به المبالغة حدا كبيرا حتى قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل ، ولكن الواقع أن ابن سناء كان مثل القاضى الفاضل تماما له ثروة لفظية استطاع بها أن يتلاعب ، وأن يكثر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصول الفن عند القاضى الفاضل ومما يدل على استقلال شخصيته واعتداده برأيه أنه كان يبدى عجبه بابن المعتز بينما كان أستاذه القاضى الفاضل يعيب شعره ، ويحط من قدره ، وجرت بينهما محاورات فى ذلك دافع كل منهما عن وجهة نظره ، ومن ذلك كله نرى أن ابن سناء كان واحدا ممن بلغوا منزلة مرموقة فى موكب الأدب العربى فى عصره .

بمن تأثر وفيمن أثر :

كان الشعراء الجاهليون يصدرون فى شعرهم عن الحياة وما تمليه عليهم من أحداث ، ولم يكن للزاد الثقافى كبير أثر فى شعرهم فلما كثر رصيدهم من الشعر ، ويسر تقدم العلم والمعرفة وسائل التسجيل والتدوين ، وأصبح فى العصور الأدبية المتعاقبة

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ .

زاد كبير وفيض عظيم من التراث الأدبي لم يقنع الشعراء بما يستمدونه من أحداث الحياة ووقائعها بل اطلعوا على آثار من سبقهم ، فاتخذوا منه مددا وعونا ، وتأثروا به تأثرا متفاوتا ، فابن سناء شاعر من أولئك الذين اغترفوا من الثقافة العربية ، ولم يدعنا نستنبط ذلك بأنفسنا بل دلنا على بعض من جعلهم رمزا للتفوق الأدبي ، والتمس من أدبهم في أفكاره ومعانيه ، وبديعياته ما يعزز اتجاهه الأدبي ، فهو يبدى تعجبه بابن المعتز ، وتأثره العميق به ، فحين اعترض القاضى الفاضل على استعماله « يعزل بيت الوجه منه ويكنس » فى قوله :

**صلينى وهذا احسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس**

حين كتب اليه يقول : « » وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلًا ، فأجاب ابن سناء : « وعلم المملوك مانبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وهو : « صلينى وهذا احسن باق البيت » .

وقد كان مشغوبا بهذا البيت مستحليا له متعجبا منه ، معتقدا أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته المشهورة :

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ، ولا مال المملوك الا الى طريق من مال اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من دله عليه سمعه » .

ومن نافلة القول أن نقرر تأثره بالقاضى الفاضل ، فقد كان
القاضى الفاضل له معلما وأستاذا ينقد شعره ويرسم له الطريق
ويأخذ بيده اليه ، وكان دائم التشجيع والمساعدة له ، وكتاب
« فصوص الفصول » يحوى عديدا من الرسائل بين القاضى الفاضل
وبين ابن سناء أو أبيه ، وجلها فى تقرير قصيدة أو نقد فكرة آمن
بها ابن سناء ، أو فى توجيه أو ارشاد . . .

كما تأثر ابن سناء بكثير من الشعراء الذين قرأ قصائدهم
واطلع على أدبهم ، ومن هؤلاء امرؤ القيس ، ومهيار الديلمى ،
وجرير ، والشريف الرضى والمتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو العتاهية ،
كما أعجب بالبحترى وعاب أبا تمام ، وانعكس ذلك كله على
شعره ، فعندما مدح القاضى الفاضل قال فى مقدمته الغزلية :

سحبت ذيل دموعى اثره وغدا
سواى يسحب أذيالا على الأثر

ألا تجد أنك أمام تلك الصورة التى أتى بها امرؤ القيس تماما
فى قوله :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل

فالصورة واحدة وإن اختلفت العبارة .

وقد ظهر تأثره بقصيدة « مهيار الديلمى » التى يمدح فيها
أبا القاسم فى يوم المهرجان ، والتى مطلعها :

ما كان سهما غار بل ظبى سنج ان لم يكن قتل الفؤاد وما جرح

فعندما مدح « ابن سناء » القاضى الفاضل وهنأه بالقدوم من
السفر قال :

يا قلب ويحك ان ظبيك قد سمنح

فتنح جهدك عن مراتعه تنح

وكانت العرب تتفعل بالطير السانح الذى يتجه صوب اليمين
وتتشاءم بالبارح الذى يتجه صوب الشمال ، وفى المثل : « من لى
بالسانح بعد البارح » ، وقد جرى فى هذه القصيدة على نهج
قصيدة مهيار .

كما تأثر بجرير فى غزله ، فاختر بعض أفكاره التى أعجب
بها وأخرجها اخراجا جديدا ، فقوله :

دع قصب نعمان أو كشان يبرين

ما قلب القلب الا أعين العين

وقد تعشق قلبى من بنظرته

يميتنى وبأخرى منه يحيينى

مأخوذ من قول جرير الذى عدّه ابن رشيق فى عمدته ، أغزل
بيت قالته العرب :

ان العيون التى فى طرفها حور

قتلنا ثم لم يحيين قتلنا

يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به

وهن أضعف خلق الله انسانا

غير أن ابن سناء قد أخذ المعنى وزاد عليه فجعل نظرة المحبوب
تحى وتميت بينما جعلها جرير تميت فقط .

وقد عارض قصيدة الشريف الرضى التى مطلعها :

يا ظبية البان ترعى فى خمائلها
ليهنك اليوم أن القلب مرعساك
فقال فى قصيدته التى مطلعها :
يا منية القلب لولا أن يقال سلا
لقلت ماكنت أعصى العذل لولاك

ولم يكتف بالمعارضة فى الوزن والقافية ولكنه أخذ كثيرا من
معانى القصيدة ، فقوله :

رمى من مصر قلبا بالشآم فما
أسراك سهما الى أحشاء أسراك
هو مأخوذ من قول الشريف الرضى :
سهم أصاب وراميه بنى سلم
من بالعراق لقد أبعدت موماك

وقرأ ابن سناء لأبى العلاء المعرى ، وتأثر ببعض معانيه
فقال يذم الشمس :

أنت عجوز لم تبرجت لى
وقد بدا منك لعاب يسيل

وقد أخذ هذا المعنى من أبى العلاء فى قوله :

وفضل الشمس فى الأيام باق
وان مدت من الكبر اللعابا

وان قلب ابن سناء المعنى وعكسه .
وقد انعكست عليه نفسية المتنبي في طموحها وغرورها
وكبريائها فقال مفتخرا :

تملكت در القول منتخبا له
فأدنى الذى أدنى وأقصى الذى أقصى

وهو شبيه بما قاله المتنبي :
أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتي من به صمم

وقوله : -

وما الدهر الا من رواة قصائدى
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشادا (١)

وتأثر بأبى العتاهية فى قوله : -

أنته الخالفة منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها (٢)

فأخذ ابن سناء هذا المعنى وقال : -

زهت الوزارة باسمه وتوشحت
منه بمن لبس الفضائل واتشح

جاءته خاطبة فكان المصطفى
وسعى سواه لها فكان المطرح

(١) ديوان المتنبي : ٢٨١ .

(٢) ديوان أبى العتاهية :

والحق أن ابن سناء قد أعجب بالأدب العباسي ، واغترف منه
ولكنه اصطفى من أدبائه ابن المعتز فعده أستاذًا ومعلما تتلمذ على
يديه كما ازداد إعجابه بالبحثري ، وعاب أبا تمام .

وظهر كثير من الشبه بين شعر ابن سناء ، وشعر شمس
المعالى (١) وأسامة بن منقذ مما يؤكد اطلاع ابن سناء على قصائدهما ،
وتأثره بهما ، ومما نجده من تشابه واضح فى الأصول الفنية بينه
وبينهما قول شمس المعالى حين سَمِعَ أن مصر سوف تخضع للخليفة
العباسي وينتهى فيها حكم الفاطميين : -

ليهنك يا مولاي فتحا تتابع
اليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها
من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المقابر عصبة
يعاف التقى والادين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أغر غرير بالكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم امامنا
تتبه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت الى عليائه تتشوف

(١) وهو شمس المعالى أبو الفضائل الحسين بن محمد ابن ترکان كان
صاحب أبي هيرة .

تملكها من قبضة الكفر يوسف

وخلصها من عصبة الرفض يوسف

يريد بيوسف الأول « يوسف الصديق » عليه السلام
وبيوسف الثانى « المستنجد بالله » الخليفة يومئذ . وقاله على سبيل
الفأل . ألا تراه قال بعد هذا البيت : -

فشابهته خلقا وخلقاً وعفة

وكل على الرحمن فى الأرض يخلف (١)

وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر « صلاح الدين »
يوسف ابن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس
وجاء « ابن سناء الملك » فمدح صلاح الدين وتأثر بهذه القصيدة
وبهذا المعنى حين قال : -

أظلت الى مصر سياسة يوسف

وجددت فيها من سميك موسما

وأحييت فيها الدين بعد مماته

فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما

وحين تقرأ مدائح أسامة بن منقذ (٢) (٤٨٨ - ٥٤٨) هـ
تحس كأنك تقرأ ديوان ابن سناء ، فالأفكار والمعاني والمبالغات التى
طبعت عمود الشعر فى هذه الفترة واحدة عند الاثنين ، فحين يمدح
« أسامة بن منقذ » « طلائع بن رزيك » : يجعل له الفضل من دون
الناس جميعا فهو أكرم من حاتم ، وهو قد تكفل للإسلام بمنع حمام

(١) الروضتين : ١٩٧٠ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (خط بدار الكتب المصرية) .

وهو هادم ما بناه الكفار ، وعزمه القوى يحمى سرحة الاسلام وهو
قد أيد الاسلام بعدله ، وببذله وبتقواه ، وهذه المعاني شاعت
فى مدائح ابن سناء • استمع الى أسامة يقول :

لك الفضل من دون الورى والأكارم
فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

ومنها :

تكفلت للاسلام أنك مانع
حماه مبيح ما حمى الكفر هادم

فأصبحت ترعى سرحه بصريمة
من العزم لم تبلغ مداها العزائم

وأيدته بالعدل والبذل والتقى
وضرب الطلا والصالحات دعائم

رميت العدا بالأسد فى أجم القنا
على الجرد تقتاد الردى وهو راغم

تسير جيوش الطير فوق جيوشها
لها كل يوم من عداه ولائم

فان خفض الفرسان للطعن فى الوغى
رماحهم انقضت عليها القشاعم

تعرض منها فوق غزة عارض
سحاب المنايا فوقه متراكم

ثم استمع الى ما قاله ابن سناء فى مدح الملك الناصر
« صلاح الدين » :

لقد نصر الاسلام منهم بناصر
يرى مغنما في الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنده
فلولاهم ما كان بيتا محرما
ومنها قوله : -

اذا ما صلاح الدين سار بجيشه
فليس الحمى ان أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واستلت الظبي
بآفاقه حتى أضاء وأظلم
طليعته الوحش الضواري مشيخة
وساقته الطير الجوانح حوما
يقول الذي يلقاه كم فيه فارسا
فيخبره المهزوم كم فيه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمي مقنعا
بفرحة من يلقى الحبيب معمما
فما أشد الشبه بين الاتجاهين *

تأثير ابن سناء فيمن بعده من الشعراء :

وكما تأثر ابن سناء بمن سبقه من الشعراء نجد أثره كذلك
واضحا فيمن أتى بعده من الشعراء بل وفيمن عاصره ولعل ذلك
يرجع الى المنزلة الأدبية والاجتماعية التي حظى بها أكثر من غيره

وكذلك للصلة العميقة القوية بينه وبين القاضى الفاضل ، والتي كانت سببا فى ذبوع قصائده وانتشارها ، فقد حدثنا القاضى الفاضل أنه كان اذا وصلته قصيدة من « ابن سناء الملك » جمع شعراء الشام وقرأ عليهم تلك القصيدة ، فاذا أبدوا تعجبهم أخبرهم أنه مما يزيد فى العجب والدهشة أن الشاعر حدث السن ، قد ظهر أثر شعره فى البهاء « زهير » (١) الذى اتخذ المنهج التقليدى فى المدح ذلك الذى سار عليه معظم الشعراء الايوبيين ، وظهر واضحا فى شعر « ابن سناء » فقد مدح البهاء زهير « ابن اللمطى » والملك العادل ، والملك الكامل ، ففى مدح الملك الكامل يقول : -

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
ومن أجله أضحي المقطم شامخا
ينافس حتى « طور سيناء » فى القدر
تدين له الأملاك بالكره والرضى
وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر
فيا ملكا سامى الملائك رفعة
من الملائك الأعلى له أطيب الذكر
يهنيك ما أعطاك ربك انه
مواقف هن الغر فى موقف الحشر
به ارتفعت دمياط قهرا من العدا
وظهرها بالسيف والملة الطهر

(١) بهاء الدين زهير بن محمد على ينتهى الى المهلب بن أبى صفرة
(٥٨١ - ٦٥٦) هـ راجع تاريخ ابن الوردى ج ٢ : ٢١٩٩ البهاء زهير : أحمد
الشاب : ٧٢ .

ورد على المحراب منها صلاته
وكم بات مشتاقا الى الشفع والوتر

فلازلت حتى أيد الله حـزبه
وأشرق وجه الأرض جـذلان بالنصر

كذلك كانت مدائحه فى الأمير « جلدك » والملك المسعود
صلاح الدين والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل .
ولا شك أنه قرأ مدائح « ابن سناء الملك » وتأثر بها ، وانك لتجد
الشبه واضحا فى المعانى والصور والأساليب اذا ما تصفحت مدائح
ابن سناء فى مدح الملك الناصر صلاح الدين اقرأ قوله : -

تخر له الأملاك ذلا وانمـا
تعز اذا خرت لديه من الذل

أليس هو ما قاله البهاء زهير :

تـلـدـين له الأفلاك بالكره والرضى
وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر

وقوله : -

أبدت النصارى واليهود بمعرك
وما جاء هذا قط فى سالف النقل

وكانت بهم تلك البلاد تنجست
فناب دم منهم عن الماء فى الغسل

تكبر فيها الله فى الجامع الذى
جمعت به بين الفريضة والنفل

وصليت فيها جمعة بجماعة
تناديك للإسلام يا جامع الشمل

واذا قرأت قول ابن سناء فى مدح الملك الناصر فى قصيدته
الميمية التى مطلعها : -

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السما
ومنها : -

يذب عن البيت المحرم جنده
فلولاهم ما كان بيتا محرما
ومنها : -

أعدت الى مصر سياسة يوسف
وجددت فيها من سميك موسما

فاذا قرأت قول ابن سناء هذا ثم قرأت مدائح البهاء زهير
تجد أنه متأثر حتما بهذه المدائح دون أدنى شك لأنه يسير على المنهج
نفسه الذى سار عليه ابن سناء .

علم الدين أيدمر المحيوى (١) .

ومن يقرأ مختار ديوان « علم الدين أيدمر » يجد شسبها
واضحا بين مدائحه ومدائح ابن سناء ، فالمنهج الذى سار عليه
الشعراء فى هذا العصر من تمجيد الكرم والكياسة ، وبعد النظر
والسياسة والشجاعة ، واحتمال الأحداث بجلد وثبات من غير هلع
ولا يأس يتفق مع اتجاهات ابن سناء . . . وفى قصيدته التى يمدح
فيها الصالح أيوب ويهنؤه بفتح دمشق والتى مطلعها : -

(١) هو عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد الذى كان وزير
الجزيرة عاصر ابن سناء ، ومختار ديوانه طبعته دار الكتب ١٣٥٠ هـ راجع
ترجمته فى الحياة الادبية : ٢١٢ .

نصرت بالرعب قبل البيض والأسل

ولطف صنع كصنع الله والرسـل

نجد أن معانى هذه القصيدة قد كررها كثيرا ابن سناء وتأثر بها هذا الشاعر وغيره من الشعراء . وحقا لم يكن ابن سناء وحده هو الذى أثر فى اتجاه هؤلاء الشعراء بل كل ما نوّكه أن الاتجاه الفنى الذى ظهر فى شعر ابن سناء الملك بل والشعراء الأيوبيين يكاد يكون واحدا ، وأن شعر ابن سناء ذا أثر واضح فى شعرهم ، ولكنه لم ينفرد بهذا التأثير لأن الطابع الذى ظهر فى شعره برز كذلك فى شعر الأيوبيين بصفة عامة ، وبخاصة فى المدائح . والفروق بين اتجاهات هؤلاء الشعراء لا تكاد تحس .

العماد الأصفهاني وابن الساعاتى :

والعماد الأصفهاني وابن الساعاتى كل منهما عاصر ابن سناء وقد كان أولهما كاتباً فى ديوان الانشاد لنورالدين محمود ، ثم شاعرا بارزا من الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين حين آل إليه أمر الشام بعد نور الدين ، وقد سبق ابن سناء فى شهرته كأديب وشاعر لأنه سبقه فى الزمن اذ ولد فى ٥١٩ هـ وبقي حتى عام ٥٩٧ هـ ، ولكن القارئ لقصائده يجد التشابه القوى فى المعانى والأساليب والطريقة التقليدية التى سار عليها كل منهما فى المدح فقصيدته فى مدح نور الدين والتى منها : -

عقدت بنصرك راية الايمان

وبدت لعصرك آية الاحسان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد

الليوث وفارس الفرسان

شديدة الشبه فى ألفاظها ومعانيها بشعر ابن سناء الملك ،
فلا شك أن ابن سناء قد اطلع على هذا الشعر ، وتأثر به ، وكان
العماد الأصفهاني يقرأ قصائد ابن سناء وهو فى الشام فيعجب
بها ، ويزيد عجبه حين يعلم حداثة سنه .

أما ابن الساعاتى (١)

فقد تأثر بابن سناء كما تأثر به ابن سناء ، وانك تلمح ذلك
واضحا من اطلعك على ديوان كل منهما ، فالصنعة البديعية لفظية
ومعنوية ، وغرام ابن الساعاتى بالتشبيه والاستعارة ، والتجنىس
والطباق يشير الى هذا التأثير المتبادل بينهما ، اقرأ ما قاله ابن
الساعاتى فى فتح طبرية يمدح « صلاح الدين » :

أدرت على الفرنج وقد تلاقت	جموعهم عليك رحي طحونا
ففى بيسان ذاقوا منك يؤسا	وفى صفد أتوك مصفدينا
لقد جاءتهم الأحداث جمعا	كأن حروفها كانت كميننا
وخانهم الزمان ولا سلام	فلمست بمبغض زمنا خئونا
لقد جردت عزما ناصريا	يحدث عن سناء طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقا	له هوت الكواكب ساجديننا
لقد أتعبت من طلب المعالى	وحاول أن يسوس المسلمينا
وان تك أخرا وخلاك ذم	فان مجمدا فى الآخريتنا

فالتجانس بين صفد ومصفدينا ، والمشابهة بين يوسف
الصديق ، ويوسف « صلاح الدين » والمعانى التى أوردها كل ذلك
يشهد بالتشابه الواضح بين الشاعرين .

(١) هو على بن رستم بن هردوز خراسانى الاصل ولد سنة ٥٥٣ هـ ،
وتوفى سنة ٦٠٤ هـ راجع ديوانه ، الاعلام ج ٢ : ٦٧١ .

آراء النقاد فى شعره :

لقد حظى أدب ابن سناء بدراسة مستفيضة فى عصره فلم يكد يلقى بالقصيدة حتى يجتمع حولها النقاد والادباء ، فهذا مادح وذاك قادح ، ذلك يعنى باستخراج جيدها ويتغاضى عما فيها من ضعف أو أسفاف بل وربما التمس لهذا الضعف أو ذاك الاسفاف وجها من الحسن أو ناحية من الجمال ، وذاك همه أن يتصيد مرذولها وقبيحها ، وغايته أن يبرز نواحي الضعف فيها . . وهكذا كان شأن النقاد والدارسين الذين عكفوا على دراسة شعر ابن سناء يدفعهم النقد الذاتى أكثر مما يحركهم الموضوع ، ولعل اهتمام الدارسين بأدبه يرجع الى قربيه من القاضى الفاضل من ناحية وإلى منزلته الاجتماعية التى كان يتمتع بها من ناحية أخرى . وقد حظى ابن سناء بتشجيع القاضى الفاضل واذاعة شعره . كما يحس المتصفح لخزانة الأدب لابن حجة الحموى أنه من الذين يتعصبون لأدبه ويدافعون عنه ، ويرون له منزلة سامية فى الأدب تفوق منزلة كثير من أبناء عصره فلنستمع لأرائهم :

رأى القاضى الفاضل :

يرى القاضى الفاضل أن ابن سناء له فى قصائده آيات محكمات ، وفرائد فاقت المعلقات ، وكتاب فصوص الفصول شاهد على ما نقول ، فقد كتب القاضى الفاضل على أثر القصيدة الفائية التى مطلعها : -

نظر الحبيب الى من طرف خفى
فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

قوله : « وما يرئنا من آية الا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا الا وقد جمع بين حسننها وبختها ، وقلما يجمع الحسن

والبخت ولهذا قيل ، وقد تمنى المليحة بالطلاق ، وعقائله المليحة
لا تطلق ولا تطلق ، وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن
هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت
على عدتها وفضلتها هذه بجودتها وجدتها ، ثم يقول : « ولو أن
البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان غارسها ،
ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه
أن أحبه وما أنصرف عن بيت أشهد له بالسبق الا استأنفت بيتا
أشهد بأنه الأحق ، وكل يدلى الى القلب بحجة ، ويفد اليه بمقتضى
لذة ومستطرف بهجة ... »

ولما كتب ابن سناء قصيدته : -

تذكرت أيام الصبا والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وجرى فيها على نهج قصيدة البحترى التى مطلعها : -

أجدر ما ينفك يسرى لزينا
خيال اذا آب الصباح تأوبا

وكان يعتذر فى قصيدته للقاضى الفاضل من تركه اياه فى
حالة مرضه ومفارقته وهو فى دمشق أشد ما يكون احتياجا
اليه ... فكتب اليه القاضى الفاضل ردا على هذه القصيدة :
« كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى ، فعلمت أن أقواله
هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد فقد منه ما فقد
ووددت لو كان البحترى حيا فكنا نلسه من تلك القصيدة بحيه ،
وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ، وتسستر من الأوراق فى
حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب ، وأيهما أحق بملك

القلوب ، ولا شك أن الغالبة هي زينب الغالب وهو صاحبنا ،
والمغلوبة هي زينب المغلوب (١) » .

وكان القاضى الفاضل كما ذكرت يذيع قصائده ، وينشر
محاسنه ، وقد حفظ « فصوص الفصول » رسالة من القاضى الفاضل
تنبئ عن ذلك فقال :

« . . . وقد علم الله ابتهاجى أن أنشأ الزمان مثله ، وتصورى
الغاية التى يخرج إليها فضله ، وتهادى الشام وشعراء الوقت هذه
القصيدة العينية ، واشتدت بها الأعين ، وأثنت عليها الألسن
فاستغربوا الحسن قبل أن ذكرت السن ، فلما ذكرته فمنهم من
عرفنى فى لحن القول السعيد ، وأبرع من خطابه ، وأحسن من
صوابه ، فانه كتاب يغنى الكتب والأقلام أوصافا ، ويشتمل على
جواهر حق لحواظرها أن تسمى بحارا ، ولقراطيسها أن تسمى
أصدافا ، عين الله على ذلك الكمال ، ولله در تلك الأنفاس التى
تستخف عقول الرجال بل عقود الجبال ، وقد ألان الله له ما ألان
لنبيه عليه السلام من الحديد الذى له بأس شديد ، وأجرى على قلمه
ما أجرى على النصار الذى فيه غنى عتيد ، وما وقفت على جديد من
قوله الا انصرف قلبى عن الخليع ، ويفعل بالأعطاف ما يفعل بالغصن
الرطيب الريح الخريع ، ولقد أبقى للآباء فى الآثار ذكرا ، وللأبناء
فخرا ، وأرسلها مقلدات ، فأرهفها مجردات ، وأثارها أوابد فنظمها
قلائد ، فسار بها من لا يسير مشمرا وغنى بها من لا يغنى
مغردا » (٢) .

ولما مدح ابن سناء الملك الملك الناصر بقصيدته النونية التى
مطلعها :

(١) فصوص الفصول .

(٢) فصوص الفصول : تحت عنوان : « فصل من كتاب الى ابن بخت

ابن الحصين » .

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

فلما وصلت هذه القصيدة القاضى الفاضل وهو بالشام كتب
اليه :

« وصلنى من القاضى السعيد قصيدة من نظمه ، وما أعرف
كفئا لها بفنه ، وقد حضر جماعة فرأى منهم ما أهمه وغمه ،
وتحققوا أن البيان قد عصاهم وأطاعه ، لزيادته فيه تنبيه عن
الشاعرين القاصرين عن أمدده ، وودت لو سمعها ليعرف كل منهما
أن يومه قد نسخ بعده ، والذي ذكره فى القافية وأنها مباءة غير
مساعدة وجامحة غير جانحة ، وبارزة غير واقدة ، صحيح لا يعلمه
الا من ركبها فركلته ، وطالبها فأجلته ، وبالجملة ان محاسنه لا أقيس
بها محاسن بليغ لأن البليغ له نادرة لا يلحقها لاحق ، كما لا يسبقه
أبدا سابق ، ومن السعادة أن المثنى عليه بالفضل صادق » (١) .

ومن هذا العرض لرأى القاضى الفاضل نرى أنه لا يقوم على
على التحليل والتعليل ، وبيان أوجه الحسن ، وإقامة الدليل ،
وانما يقوم نقده على الذوق ، والمحجب لا يرى الا بعين الحسن ،
ويغتفر كل ما هو قبيح ، وان كان القاضى الفاضل قد وجه ابن سناء
أحيانا ، وقام بينهما جدل وحجاج ، وقد سبق أن تحدثت عن عدم
استحسانه استعمال الشاعر كلمتى « يعزل ويكنس » فى قوله :

صلينى وهذا الحسن باق فربها
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

(١) فصوص الفصول : ٧٤ ، ٧٥ .

فقد قال :

« وبيت » يعزل ويكنس » أردت أن أكنسه من القصيدة ،
فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ، وقد سبقت الإشارة الى
ذلك .

رأى ابن حجة الحموى :

وكثيرا ما استحسن ابن حجة شعر ابن سناء ، ورأى أن
النقاد والشعراء الذين نقدوه ، وحاولوا أن ينالوا منه اما حاسدون ،
واما متجنون ، وإن ابن سناء سابق وهم لاحقون .

لما قال ابن سناء قصيدته التي مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعصم
وفارقت لكن كل عيش مدمم

وباتت يدي فى طاعة الحب والهوى

وشاحا خصر أو سوارا لمعصم

علق ابن حجة فى خزانته بقوله على البيت الثانى بقوله :

« هذا هو التشبيب ، ومخلصه من أحسن المخلص ، وقال . .
لقد أحرز القاضى السعيد قصبات السبق برقة هذه الألفاظ ،
وغرابة هذه المعانى ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الأفهام ،
وأظنه من المخترعات » (١) .

وكان ابن سناء قد تعرض لعاصفة من النقد الشديد عندما
قال هذه القصيدة فى مدح « شمس الدولة تورانشاه » ، وهجنوا

(١) خزانة الادب : ١٥٥ .

هذا الافتتاح فعابوا التقنع بالحبيب ، وقالوا كيف يكون الحبيب
قناعا حتى يتقنع به ؟ ورد على هذا النقد جماعة آخرون وعدوا هذا
النقد من قبيل التحامل والحسد ، فالتقنع فى رأيهم من القناعة أى
الاكتفاء ، وقد رشح لذلك بالمعمم ، وفى قوله : « الحبيب المعمم »
إشارة الى قول أبى الطيب فى قصيدته التى بدأها بقوله :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يمت غير ميمم

والبيت المشار اليه هو قوله : -

ولو أن ما بى من حبيب مقنع

عذرت ولكن من حبيب معمم

وقد شبب فى هذه القصيدة بأمرد ، ولعل السبب فى
تعصب الشعراء على ابن سناء تلك التورية فى التقنع كما يتضح
ذلك من هذين البيتين لابن المنجم حين أجاب الوجيه الذروى : -

ذروينا قتلته قلة عقله

فى نصر بيت شائع عن ضفدع

شئ من الشعر الركيك رويته

لخنثين معصب ومقنع

وليس السبب هو غرابة استعمال حرف الاستدراك كما
صرح بذلك Das nuwawabr هورتمان فى كتابه Hortman
ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته التى مطلعها : -

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى

ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

قال فى مقدمتها الغزلية : «

« تغنى عليها حليها طرباً بها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا »

فقال « ابن حجة الحموى » فى كتابه خزانة الأدب « حين وصف « نوع التهذيب والتأديب » : « ان هذا النوع ليس له شاهد يخصه لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن تردد النظر فى الكلام بعد عمله ، والشروع فى تهذيبه وتنقيحه ، ثم قال « رأيت العلامة زكى الدين بن أبى الاصبع ، قد استحسن من الشواهد اللائقة بهذا النوع قول القاضى السعيد ابن سناء الملك هذا البيت « تغنى عليها حليها طرباً بها ... الخ . وقال وقوله الصحيح :

« لو لم تقدم فى صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء ، حصل بها فى البيت من الرونق ما لا يحسن بدونها ، وكان البيت خالياً من التهذيب فبوجودها حصل فى بيته تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب ، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف ، وقلق القافية ، وبذلك تقدم التهذيب ، فانه لو قال : « زهت بأزاهير الجمال وحسنه » لظهر قلق القافية . وتمكين تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : « تغنى ... » (١)

وعلق ابن حجة على قصيدته :

سـوای يخاف الدهر أو يرهب الردى وغیرى یهووى أن يعيش مخلداً

قائلاً : وممن افتن فى قصيدة كاملة ، وتفنن ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر ، الى رقة الغزل وأحسن ، القاضى السعيد

(١) خزانة الادب :- ، بديع القرآن لابن أبى الاصبع تحقيق حنفى

ابن سناء الملك رحمه الله ، فانه قسم القصيدة شطرين وتلاعب
فى ميدان البلاغة بالفنين ، وهذه القصيدة تقف دونها فرسان
الحماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، وينثنى من لطائف غزلها من
لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها ، وممن حذا هذا الحذو
ونسج على هذا المنوال ، ومشى على طريق ما سلكها أحد قبله
الصاحب « بهاء الدين زهير » - ثم ذكر ابن حجة قصيدة زهير -
قال أو قد اشتهرت قصيدة ابن سناء هذه بين الشعراء والنقاد
حتى قال ياقوت الحموى فى كتابه ارشاد الأريب (١) : « ومن
شعره الذى سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية : -

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يكون مغلدا

والقصيدة طويلة كل بيت منها فريدة فى عقد ، وشعره كثير
وأكثره جيد (٢) » .

ويحلوا لنا أن نصحب القارئ الى تلك المعارك الأدبية الحامية
التي اندلعت حول أدب ابن سناء الملك بين القادحين والمادحين
والمؤيدين والمعارضين :

المعركة الأولى بين النقاد :

قال ابن سناء فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين بعد
فتحه نابلس ، البيت رقم ٨ :

بشوك القنا يحمون شهد رضا بها
ولابد دون الشهد من ابر النحل

(١) ارشاد الأريب ج ٧ : ٢٣٧ .

(٢) خزنة الادب : ص ٦٣ .

ذكر الصفدى فى شرحه على لامية العجم أن شرف الدين ابن جبارة أورد ما أورد على بعض الأبيات من هذه القصيدة من فساد المعنى ونقضه ، ثم قال فى هذا البيت : أراد أن يمدحهم فهجأهم بهذا المثل الذى جعله ككفن الميت ، لأنه جعل طعن رماحهم كابر النحل ، وابرة النحل لا أثر لها ، ولا ألم يحصل منها ، ولو أن كل عاشق انما يمنعه من معشوقه ، ويحجزه عنه لسع الزنابير ولدغها لسهل عليه صعبها ، وذل له منعها ، والله در المجنون اذ يقول : -

وحقكم لا زرتكم فى دجنة من الليل تخفينى كأنى سارق
ولا زرت الا والسيوف هواتف الى وأطراف الرماح عواشق

ولأبى عبد الله عثمان المعروف بابن الحداد الأندلسى : -

انى أراع لهم وبين جوانحى
شوق يهون خطبهم فيهمون
أوهل يهاب ضرابهم وطعانهم
صيب بأحاظ العيون طعين
وكأنما ييض الصفاح جداول
وكأنما سمر الرماح غصون

ثم ذكر أشياء غير ذلك وقال : لولا وقوع هذا الشاعر فى شعره ، وقلة معرفته ، وقصور فكره ، لما قال : « بشوك القنا يحمون شهد رضاها » وكيف يحمى الشهد بالشوك ، ولو اتفق له أن يقول : « جنى رضاها لكان أسوغ وأبلغ ثم قال فى أول البيت « شهد » وفى آخره « شهد » وانما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ لأنه اذا كرر بلفظه فكأنه هو وانما القصد أن يكشف

المعنى بلفظ موجز وقول مجموع معجز ، واذا تؤمل أكثر الشعر
المضمن للأمثال وجد على هذا المثال ، وهذه العلوم تدق عن فهمه ،
ويخفى غرضها عن مرمى سهمه » انتهى .

ثم قال الصفدي : « أما كونه يدعى أنه لا ألم في ابر النحل ،
ولا ضرر في الزناير فهذا مما لا يسمع وهو تحامل أليس في ابر
النحل والزناير سما يمنع القرب منه والدنو اليه ، وغالب الناس
يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، ومن مسائل النجاة : « كنت أظن
العقرب أشد لسعا من الزنبور فاذا هو هي أو فاذا هو اياها ، ولعل
بعض الناس لسعه زنبور فتورم منه ومات وبالجمل ففى ابر النحل
سم تعاف النفوس الاقدام عليه ، وهو ما أراد أن طعن قومها مثل
لسع ابر النحل كما قال المعري : -

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسهمرية دون الوخز بالابر

لأنه ما أتى بمثل ولا بكاف التشبيه بل نبه بالمثل الذى ذكره
على أن حلاوة ريقها لا تنال الا بعد مشقة وعناء وأهوال ، كما أن
الشهد من دونه ابر النحل ، وكل لذيذ محفوف بالألم ، فالجنة حفت
بالمكاره ، وهذا غير وارد عليه . واما انكاره شوك القنا فهو استعارة
حسنة ، والتشبيه مطابق لأن الأسنة أشكال مستدقة ملسنة حادة ،
كما هو الشوك ، وأتى بها ليطابق الكلام المثل فى قوله

« ولا بد دون الشهد من ابر النحل » فقوله «شوك» يناسب
ابر النحل وقد شبه الشعراء القنا بالشوك قال الأرجاني :

ورد الحدود ودونه شوك القنا
فمن المحدث نفسه أن يجتنى

وقال ابن خفاجة : -

والخيل تعثر فى شبا شوك القنا
وتظل تسبح فى الدم الموار

وما أعجبني شيء مما أورده عليه غير انكاره تكرار الشهد ،
وكان الأحسن لو قال :

« بشوك القنا يحمون رشف رضاها »

وأما المصراع الأخير من كلام المتبنى حين خاطب العاذلة فى
قصيدته : -

تريدين لقيان المعالى رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

فيقول : لا يمكن حصول المعالى رخيصة ، ومن أراد جنى
الشهد فعليه أن يقاسى لسع النحل ، فلا تحصل خلاوة الشهد
الا بعد مقاساة اللسع (١) .

معركة ثانية :

وقال ابن سناء فى قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين بعد
فتحه « نابلس » : -

لها ناظر يا حيرة الظبي اذ رنا
به كحل ناداه يا خجلة الكحل

(١) الفيث الجزء الاول ص ٢٢٤ .

وقد عاب هذا البيت ابن جبارة من ناحيتين . الاولى : انه قال « يا حيرة الطبى » ولم يحار مع وجود المقاربة ، وعدم المباينة كما أنه جعل العلة فى حيرته ، وجود الكحل . . ان هذه قريحة وفكرة غير صحيحة . . وهذا ان سلم له فهناك مأخذ آخر وهو أنه استعمل « اذ » شرطيه تدل على الجزاء وليست هى من حروف الشرط والجزاء ، وهل ينبغى أن يقول قائل « اذ يقوم زيد قام عمرو » ، ويريد بذلك التعليق . والظاهر أنه أراد أن يقلد المتبنى فى قوله :

« وليس التكحل فى العينين كالكحل » فأخفق .

وقال ابن سناء بعد هذا البيت : -

« وأثقلها الحسن الذى قد تكاثرت

ملاحظه حتى تثنت من الثقل

فقال ابن جبارة : هذا قلب للمعنى ، وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شخص فيستحسن به ، والملاحظة وهى وان كانت البياض فى الأصل فهى فى الاستعمال صفة صورة الذات من الحاجب والعين والأنف والفم ، ولهذا يقال فى العرف : مليح حسن يعنى أن الذات مكملة بالملاحظة فى صورة مستحسنة عند تأملها لبلوغ الأمل ثم قال ولا ينبغى أن يقال : « هو حسن مليح » لأنه يجعل الوصف الذاتى تبعا لغيره ، وكان الصواب أن يقول : « أثقلتها الملاحظة التى تكاثرت حسننها ، ولكنه قال : « حتى تثنت من الثقل » لو رفع الثقل لكان أليق بالبيت وبصنعه فلا يقال له : « أهويت ولا أهويت » وهل يتثنى الانسان من الثقل وانما يمشى قطعة واحدة فى حال الثقل . ثم قال وقد وكلت شرح هذا البيت لعجزى عن معناه الى عريف الحمالين فعساه أن يعرف معناه ، ولقد أحسن الأعشى حيث يقول : -

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل

وقال بشار : -

إذا قامت حاجتها تشتت
كأن عظامها من خيزران

ثم قال الصفي : « هذا لعمرى نقد حسن ، وسبيل ألقى عليه العنان والرسن ، ولو كان لى فى البيت الأول حكم لقلت : « لها ناظر يا حيرة الطبى عنده » وخلصت من « اذ » وعدم وضعها للمجازاة ، وأما قوله : « وأثقلها الحسن » فابن جبارة معذور فيه لأن حسنا يثقل صاحبه سمج بارد غث لأن الحسن انما يفيد الخفة والحركة والنشاط وما مدح شئ بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر ، ورشاقة القد (١) .

معركة الثالثة :

لما قال ابن سناء قصيدته التى مدح فيها القاضى الفاضل
والتى مطلعها : -

باتت معانقتى ولكن فى الكرى
أترى درى ذاك الرقيت بما جرى
جاء فيها قوله : -

يتقرى الضيوف شعاع تبر أحمر
فشعاع ذاك التبر نيران القرى

(١) الفيت ج ١ : ٢٤٣ .

ولقد سمعت وما سمعت بواهب
جلت مواهب كفه أن تشكرا

قال ابن جبارة عن قوله : « يقرى الضيوف » لقد ألم
ابن سناء أولا بقول ابن عمار : -

قدح زناد المجد لا ينفك من
نار الوغى الا الى نار القرى
وزاحم فيه أبا الطيب قوله : -

تركت دخان الرمث في أوطانها
طلبا لقوم يوقدون العنبرا

وقوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . والتبر
لا يكون الا كذلك وانما قصد المبالغة ، وشبه ذلك بشعاع النار
التي توقد على اليفاع ليهتدى بها الجيران ، وتهتدى الى مواضعها
الضيغان وقد جعله يدفع الى الضيوف صلة الانعام ، ويمنعهم من
الطعام وكم من ضيف يمتنع من أخذ ذلك ويعده عيبا شنيعا . هذا
ما قاله ابن جبارة .

أما الصفدى فيرى أن ذلك النقد تعنت زائد من ابن جبارة
فليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار ، ولا بقول أبي الطيب ، نعم
لو قال : نظر الى قول أبي الطيب : -

ومللت نحو عشارها فأضافنى
من ينحر البدر النضار لمن قرى

لكان فيه بعض سرقة .

وأما قوله : « التبر لا يكون الا أحمر » فلا نسلم له هذه

الدعوى لأن التبر ما كان من الذهب غير مضروب ، والشاعر هنا ما أراد الا الذهب المضروب ، ولكنه قال تبراً مجازاً ، والذهب منه ما يكون أحمر ومنه ما يكون أخضر ، ومنه ما يكون أصفر ، وهذا أمر يشاهده الحس ولولا أن ذلك لازم لما قيل فى بعض المواطن : الذهب الأحمر كما يقال « الثلج الأبيض » وما بقى له من النقد عليه الا قوله : « ان الأضياف فيهم من لا يقبل الانعام » وهذا نقد حسن فان الضيف قد يكون أكبر قدراً ممن أضافه ، وأجل نعمة ، وأشرف همة ، ولا كذلك العفاة . فانهم لا يكونون الا دون من يسألون ويستعطفون فلو قال : « يقرى العفاة » لزال الايراد ، مع أن فيه نظراً من اثبات القرى ، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ، ويستعطفونه (١) .

وما أورده الصفدى رداً على ابن جبارة فى هذا المقام هو ما نميل اليه ، غير أن الاعتذار عن الشاعر بأنه يمكن تخصيص « القرى » بالأضياف الذين يسألونه ويستعطفونه فيه تحمل ظاهر اذ أن الأضياف ليس من صفاتهم السؤال والاستجداء .

معركة أخرى :

لما قال ابن سناء قصيدته الفائية التى مدح بها «صلاح الدين» جاء فى مقدمتها الغزلية : -

لا أرتضى بالشمس تشبيها لها والبدر بل لا أكتفى بالمكتفى

وهو يشير الى قول ابن المعتز : -

والله لا كلمتها ولو أنها
كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

فتعنت عليه ابن جبارة وقال :

هذا نوع من الجنون والاختلاط ، ذلك أن الشاعر كثير
ما يسمع الشعر ويختلط فيه ذهنه فيفهمه على غير معناه ، فابن
المعتر كان يقصد : « أنها في حسنها كالشمس التي هي آية النهار
أو كالبدر الذي هو آية الليل ، أو كالمكتفى الذي هو خليفة الأرض
في عظم الشأن وكبير السلطان ، فنقله هذا الشاعر إلى الحسن ،
ولم يكن المكتفى إلا أسمر أعين قصيرا ، وليست هذه من صفات
الحسن ، وقد أخطأ ابن سناء الفهم ، ونقل هذا المعنى على الحسن ،
ويصدق في هذا المقام قول ابن السجناء : -

الشعر كالروض ذا ظام وذا خضل

أو كالصوارم ذا ناب وذا خصم

مثل العرائن هذا حظه خنس

يزرى عليه وهذا حظه شم

هذا ما قاله ابن جبارة .

ثم انبرى للرد عليه الصفدي قائلا : « ليس ابن سناء
مما يخفى عليه هذا الذي ذكره ، وإنما ذكر ابن المعتر المكتفى خروجا
إلى المديح بعلاقة الحسن ، وما زال الشعراء يصفون المدوح بالحسن
والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصباح وذلك
مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده ، وإنما قول ابن المعتر قد شاع
وذاع وملا الأسماع ، وسار وطار في الأقطار بالاشتجار فلما ذكر
ابن سناء الملك حسن محبوبته ، وذكر الشمس والقمر والقافية
فائية كان المكتفى جالسا في طريقها ، وكان في ذكره إشارة إلى
ابن المعتر مع زيادة الجناس فقال : - « بل لا أكتفى بالمكتفى الذي
جعله ابن المعتر غاية في الحسن عنده لأنه انتقل من أدنى إلى أعلى

ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه « بل » التى هى للاضراب ، وهذا غاية فى حسن النظم ، والتلاعب بالكلام ، وما ينكر هذا الا من ليس له ذوق بالادب ، فانه قد جاء هذا النوع كثيرا فى كلام المتأخرين . أنشدنى صفى الدين الحلى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة : -

يقبل الأرض عبد من عبيدكمو
عليكمو بعد فضل الله يعتمد

ما دارمية من أسنى مطالبه
يوما وأنتم له العليا فالسند (١)

وابن جبارة قد جاوز الحد فى تعنته على ابن سناء الملك ، وأنكر دلالة التاريخ متعمدا ليؤكد زلات الشاعر . فقد ذكر أصحاب التاريخ أن المكتفى كان وسيما مليحا بديع الحسن درى اللون ، معتدل الطول ، أسود الشعر (٢)

وأما البيت المنسوب الى ابن المعتز فلا يوجد فى ديوانه الذى بين أيدينا ، وذكر « ياقوت » (٣) أن الثعالبي نسب هذا البيت الى ابن المعتز وهو فى الحقيقة لأبى بكر محمد بن السراج النحوى ثم ذكر هذه القصة فى ترجمة ابن السراج (٤) : « حكى أن أبا بكر بن السراج كان يهوى جارية فجففته فاتفق وصول الامام المكتفى فى تلك الايام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما شاهد أبو بكر جمال المكتفى تذكر معشوقته وجفاءها له فأنشد بحضرة أصحابه :

(١) شرح لامية العجم للصفدى : ج ١ : ١٢٨ .

(٢) دول الاسلام للدعبل : ج ١ : ١٤١ .

(٣) ارشاد الاريب : ج ٢ : ٢٣٢ .

(٤) ارشاد : ج ٧ : ١٠ .

ميزت بين جمالها وفعالها
فاذا الملاحاة بالخيانة لا تفي

حلفت لنا أن لا تخون عهودنا
فكانما حلفت لنا ألا تفي

والله لا كلمتها ولو أنه
كالبدر أو كالشمس أو كالملكوتي

ثم ان أبا عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب أنشدها
للأبي العباس ابن الفرات وقال هي لابن المعتز، وأنشدها أبو القاسم
ابن عبيد الله الوزير فاجتمع الوزير بالمكتفي وأنشده إياه ، وقال
للمكتفي هي لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر فأمر له بألف دينار ،
فوصلت إليه ، فقال ابن زنجي ، ما أعجب هذه القصة ، يعمل أبو بكر
ابن السراج أبياتا تكون سببا لوصول الرزق إلى عبید الله بن عبد الله
ابن طاهر فيظهر من هذه الواقعة أن ابن السراج عمل هذه الأبيات
بعد أن شاهد جمال المكتفي ، وأراد بقوله ، اظهار صفة حسنه وجماله
فيثبت أن زعم ابن جبارة في خروج الشاعر الى المكتفي كونه خليفة
الأرض في عظم الشأن ، وكبر السلطان ظن من الظنون لا تؤيده
الحقائق ، ونسج على هذا المنوال الكاتب الشهير صاحب ابن عباد
في قوله : -

والله لا راجعته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كبويه

وعندي أن اقتباس ابن سناء الملك أحسن من اقتباس صاحب
ابن عباد « . ولا شك أن رأى الصفدى له وجهته وحسنه فلا خير
أن يكون المكتفي غاية في الحسن والبهاء كما يمكن أن يكون غاية في
المنزلة وعظم السلطان سواء أنسبت هذه الأبيات إلى ابن المعتز أم
إلى غيره .

رأى آخر للصفدى :

لما قال ابن سناء مقطوعته التى يتغزل فيها بعمياء وكان الشاعر قد أعدها مع مقطوعة أخرى تحديا جاء فى احدهما قوله : -

رأيت منها الخد فى جـؤذر

وناظرى يعقوب فى يوسف

فأشار فى الشطر الثانى الى ذهاب بصر « يعقوب » فى فراق يوسف ، وشبه العمياء بيوسف ، وشبه عينيها بناظرى يعقوب ، وقد علق الصفدى قائلا : « هذا البيت الثالث ماله فى الحسن وارث ، ولقد تلطف فيما تخيل ، واختلس رقة المعنى وتحيل » . وقد ذكر أن الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة أخذ هذا المعنى عنه (١) .

آراء النقاد والدارسين المحدثين :

ولقد حظى ابن سناء من الأدباء والنقاد ودارسى الأدب الصليبيى فى عصرنا الحديث ببعض العناية لكونه أحد الشعراء اللامعين فى العصر الأيوبي فمنهم من خصه بنتف سريعة ، أو رأى مقتضب ، يميل فيه الى الاجمال تاركا التفصيل ، ومنهم من اهتم بدراسة موشحاته وحدها كالدكتور جودة الركابى ، ولم يتناوله بدراسة واسعة سوى الدكتور عبد العزيز الأهوانى وسنشير الى هذه الآراء اشارة سريعة .

رأى الدكتور أحمد بدوى :

لقد أفرد الدكتور أحمد بدوى لشاعرنا صفحات محدودة ترجم له فيها بقدر ما استدعته طبيعة بحثه وقال عنه : -

(١) الفيت ج ٢ : ١٨٨ .

لقد بدت مقدرته في الشعر والنثر منذ وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضي الفاضل الذي كان مغرما بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله في أوائل ما أنشده من شعر ونثر . . الخ (١)

رأى الدكتور جودة الركابي :

لقد حقق الدكتور جودة الركابي كتابه « دار الطراز ، الذي جمع موشحاته ومختاراته من الموشحات الأندلسية ، وقد تعرض في الحديث عن ترجمته الى الحديث عن شعره فقال : « كان ابن سناء واقعا تحت تأثير التأنق اللفظي الذي كان يسيطر على الادب في ذلك الوقت يعجب على الاخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحترى ويود لو يستطيع مجاراة ابن المعتز الذي يذكر له باعجاب هذين البيتين : -

وقفت بالربع أبكى فقد مشبهه

حتى بكت بدموعي عين الزهر

لو لم تعرها دموع العين تسفحه

لرحمتي لاستعارته من المطر

وكان للقاضي الفاضل أثر عظيم في توجيهه وتكوين أسلوبه الادبي الخاضع للمدرسة اللفظية ، وكنت ترى في خلال مدائحه « صلاح الدين الأيوبي » نفسا عربية مخلصه تجيش بالاكبار والاجلال والاعظام نحو الرجل الذي صان الديار الاسلامية ، وطهر بيت المقدس

(١) الحياة الادبية : ١٩٦ .

عن المغيرين على أرضه ، فيترك الشاعر الصناعة والتكلف عفوا ليرتك
العاطفة تتحدث وترجع تشوى فى أجواء النصر والمجد (١) .

رأى الدكتور عبد العزيز الأهوانى :

ولقد تعرض الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى كتابه «ابن سناء
ومشكلة العقم والابتكار فى شعره» ، الى دراسة نماذج من قصائده
وأخرى من موشحاته وانتهى الى : أن الاصول الفنية والمعنوية التى
رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هى التى رجع اليها فى نظم
موشحاته الحرص على الجناس اللفظى والمقابلة بين المعانى ، والاعتماد
على العقل فى توليد الافكار ، وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية
التشبيهات والاستعارات . . أما ما شغف به ابن سناء فى ديوانه من
حسن التعليل ، ومن المفارقات ، ومن ايراد ما يشبه القضايا
المنطقية ، والحجج العقلية ، فقد ظل قائما فى الموشحات ولكنه لم
يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأن جهده فى تلمس القوافى الكثيرة
صرفه واستنفد بعض نشاطه فى الجهد العقلى ولذلك كان تجديده
فى المعانى وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته « (٢)

رأى الأستاذ عمر الدسوقي :

وقد تحدث عنه الأستاذ عمر الدسوقي أثناء عرضه لقصائد
الحماسة فى الشعر العربى ، وهو يرى أن شعره كان أضيق حدودا
من أن يمثل أمجاد « صلاح الدين » الحربية ، وبطولته التى تكسرت
عليها سيوف الصليبيين ، وما كان أحوج هذه البطولة لشاعر من
طراز المتنبى أو أبى تمام ليتقابل شاعر اللفظ مع شاعر المجد ، ولكن

(١) دار الطراز تحقيق جودة الركابى : (المقدمة) .

(٢) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ - ٢١٣ .

الشعر العربى كان قد تحول عن قوته وروعته القديمة ، فأصبح تكرارا مملا لمعان محفوظة ، ولم يعدهم الشاعر الكبير مثل ابن سناء الملك الا أن يخرج هذه المعانى والصور اخراجا جديدا ، فاذا هو لا يصل الا الى ضروب من التكلف الواضح (١).

رأى الدكتور محمد كامل حسين :

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن فن القاضى الفاضل قد أثر تأثيرا قويا على فن ابن سناء الملك ، وكلاهما أولع بالزينة اللفظية وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى ، وكلاهما بلغت به المبالغة حد الاستحالة فلذلك قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل ، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء مع ما حدث من افراط فى استخدام تلك الخصائص . ويظهر أن ابن سناء الملك كان مثل القاضى الفاضل تماما ، له ثروة لفظية استطاع بها أن يكثر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى الشعر والشعر » (٢)

هذه بعض الآراء التى قيلت فى دراسة شعر ابن سناء الملك وموشحاته ، وقد اكتفينا بذلك عن غيرها من الآراء الاخرى الكثيرة التى لا تعدو هذه الآراء ولا تزيد عليها . ويهمنى بعد أن قدمت آراء النقاد قديمهم ومحدثهم أن أشير الى نتيجة بحثى فى شعره ودراسته دراسة مفصلة وأوضح معالم المدارس الادبية التى كانت آنذاك ثم مدرسة ابن سناء .

(١) الحماسة : ١٠٤ لعمر الدسوقي وآخرين .

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين : ١٢٦ .

معالم المدارس الأدبية :

لقد اجتهد بعض النقاد ودارسو الادب الفاطمي أن يتحقوا كل أديب من هذا العصر بمدرسة من المدارس الأدبية ، فهذا يلحق بمدرسة العقائد لأن أدبه قد تأثر بالعقائد الفاطمية ، وذاك من مدرسة الرقة والسهولة لأنه أكثر من الغزل الرقيق ، وذاك من مدرسة الكتاب لأنه تأثر باتجاهات الكتاب وطابع الكتابة ونحا منحى القاضى الفاضل ، ودارس آخر ينزع فى تقسيم المدارس ناحية أخرى وهى أن هذا الأديب من مدرسة المجددين وذلك من مدرسة التقليديين ، فهو من المدرسة الاولى اذا نزع بأدبه نزعة تجديدية فى الصور والأخيلة والمعانى ، وهو من المدرسة الثانية اذا سار على نهج الشعراء الاقدمين فى خياله وتفكيره وتصويره .

ما مدرسة ابن سناء اذن ؟

هل نستطيع أن نلحقه بمدرسة العقائديين ؟ لقد تأثر شعره تأثرا واضحا بالعقائد الفاطمية ، وان لم يكن شيعى المذهب فقد ظهرت فى شعره بعض المصطلحات والعقائد الفاطمية ، واستخدم فيه من غريب الالفاظ ما أدى أحيانا الى شئ من التعقيد فهو حين يمدح « صلاح الدين » يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف

وجددت فيها من سميك موسما

وأحييت فيها الدين بعد مماته

فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما

بقيت الى أن تملك الأرض كلها

ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين « صلاح الدين » وبين يوسف عليه السلام في الاسم حقيقة - ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب وجعله ابن مريم التي أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل الا على أساس واحد ، وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التي تؤول الآيات القرآنية التي وردت في المسيح بأن أحياء الموتى معناه نشر الدين وأحياء النفوس بالعبادة ، ويقول ابن سناء في مدح السلطان علي بن صلاح الدين : :

مولي الأنام على هكذا نقلت

لنا الرواة حديثا غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوي الذي ادعاه الشيعة :

« من كنت مولاه فعلى مولاه » الذي قيل في علي بن أبي طالب الى الملك «علي بن صلاح الدين» متبعا في ذلك سنة الشعراء الفاطميين وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره من الشعراء ، وشاركوه هذا الاتجاه ، كابن النبيه ، وابن الساعاتي وابن مطروح .

وبعد فهل ابن سناء من مدرسة العقائديين ؟ الواقع أن هذه المدرسة قد بدأت في الانقراض بمجرد قيام الدولة الايوبية حتى لم يعد لها مقومات المدرسة ، وان ألم بعض الشعراء باتجاهاتها وظهر أثرها في شعرهم ، لأنهم لم يقصدوا الى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيه أن يلموا بتلك الخصائص ، وانما تنسب اليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين ، والذي ينبغي أن نسميه مدرسة هو ما يتجه اليه الشعراء عن عمد ومعرفة بمناهجها وطابعها وخصائصها ، فليس ابن سناء من هذه المدرسة اذن وان ألم ببعض خصائصها .

هل هو من مدرسة الرقة والسهولة ؟

يرى الدكتور « محمد كامل حسين » أن هذه المدرسة تعد في العصر الايوبى امتدادا وتطورا للفن الذى يلائم الحياة المصرية ، والبيئة المصرية ، وأنها كانت تضم أكثر الشعراء فى ذلك العصر ، فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة ، أو قصيرة ، ولا يظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ما جاء للتزلف ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى أن مذهبهم عرف فى العصر الايوبى « بالطريقة الغرامية » فقد اهتم هؤلاء الشعراء اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم المختلفة ومن شعراء هذه المدرسة البرهان بن ابراهيم بن الفقيه (٦٤٠ هـ) ،
القائل : -

وا لهف جلى ووا هزنى
ممن الاطفه جهدى ويتعبنى

بذلت روى فى أدنى تواصله
ذلا وصبرا وعظفا وهو يهجرنى

وكلمما رمت منه ما أهز به
عطف السرور انزوى عنى وأحزنى

فالألفاظ سهلة حتى كان الشاعر يتحدث حديثا عاديا ، وقد ظن بعض النقاد أن الشعراء يستعملون الألفاظ العامية ، وقد دفعهم إلى ذلك ما لمسوه من سهولة الألفاظ ورقتها ، ومن شعراء هذه المدرسة أيضا « أمين الدين بن أبى الوفاء » المعروف بابن العصار وهو من شعراء الملك الكامل بن العادل وهو القائل : -

أعندكم أن قلبى متيم مستهام ؟

الصبر الا عليكم في كل حال حرام
لا أوحش الله منكم فقربكم ما يرام

ومن شعرائها « هبة الله بن عرام » والشاعر النفيس « أبو العباس أحمد بن أبي القاسم » المتوفى سنة ٦٠٣ هـ ، « والبهاء زهير » .
وغير هؤلاء ممن ظهوروا في هذه الفترة .

وبعد : فهل يمكن أن نعد ابن سناء من أنصار هذه المدرسة ؟
لقد خص كثيرا من شعره في الغزل ، بل ان الغزل هو الغرض الثاني في ديوانه ، وأكثر من ذلك فقد أطال في مقدماته في المدائح ، وجعل الغزل يحتل نصف قصيدة المدح ، فحين يمدح القاضي الفاضل : -

قتل لحبكم شهادة	وشقاوتى فيكم سمادة
وكذاك كفرى بالعدو	ل على محبتكم عبادة
ويج العنول اذا مضى	من عزله فن أعاده
والنفس تفرق في معا	داة الأحاديث المعاده
تم الفرام بكم	فلا نقص عليه ولا زياده
بأبى وأمى أغيد	واذا اعتبرت وجدت عادة
خفر الشماثل لين الأعـ	طاف مستعصى المقاده

وهكذا نجد كثيرا من شعره في المدح قد صدر بهذا الغزل الرقيق . ومن أجل ذلك جعله الدكتور محمد زغلول سلام « الشاعر المقتن الرقيق من شعراء هذه المدرسة ، وان لم يفصح عن ذلك صراحة (١) » .

أما الدكتور « محمد كامل حسين » فقد جعله من مدرسة الشعراء الكتاب فما معالم هذه المدرسة ؟ ولماذا عدّه من أنصارها ؟

(١) الادب في عصر صلاح الدين الايوبي : ٣٦٥ .

معالم مدرسة الكتاب :

لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التي يخضع لها الكتاب ، وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء ، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ، ذات الوقع الضخم ، والجرس الموسيقى الذي يؤثر في السمع ، مع حلاوة الايقاع ، وكانوا يتلاعبون بهذه الالفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ، ومراعاة نظير الى غير ذلك من ألوان البديع والبيان ، ومن أنصار هذه المدرسة « الموفق بن الخلال » وابن أبي الشخباء ، والقاضي الجليس ، وابن الزبير ، وعمارة اليمنى ، فى العصر الفاطمى . وفى الايوبى : الأسعد ابن مماتى ، وابن المرصص ، وابن عرام ، وابن ظافر ، على أنهم التفتوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك .

والواقع أن ابن سناء كان تلميذا للقاضي الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ، ويعنى بنقده ، وكان يعنيه أن يستجيد شعره ، والقاضي الفاضل كان كما نعلم زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الايوبى ان لم يكن هو منشؤها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثرا كبيرا ، وان كانت له شخصيته ، والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك .

بقى أن نشير الى أن ابن سناء كان يحاول الابتكار والتجديد وان دفعه ذلك الى نزعة عقلية ابتعدت به عن رياض الشعر المونقة (١) .
فابن سناء اذن ينزع منزع مدرسة الكتاب ، وان تعلق بآثار

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ .

الأقدمين ، فاقتدى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم ، ولكنه كان على كل حال أحد المعدودين فى العصر الأيوبنى تطاولت اليه أعناق الشعراء فى عصره ، وحسبوه على مكانته ومنزلته التى ربما كان الفضل فيها يرجع الى أستاذه القاضى الفاضل الذى كان على صلة وثيقة به والله ولى التوفيق *

المراجع

- ابن الرومي : حياته من شعره . عباس محمود العقاد
ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار د عبد العزيز الأهواني
اتعاظ الحنفا المقریزی
أخبار مصر ابن میسر
أدب الحروب الصليبية د عبد اللطيف حمزه
ارشاد الأديب (معجم الأدباء) ياقوت الحموی
اغاثة الامة بكشف الغمة د فريد الرفاعي
الأدب المصرى من قيام الدولة الأموية
الى مجيء الحملة الفرنسية د عبد اللطيف حمزة
الأدب فى عصر صلاح الدين د محمد زغلول سلام
الأدب العربى ونصوصه نعيم الحمصی و خليل هنداوى
الأعلام ج ٢ خير الدين الزركلى

البغدادى	الافادة والاعتبار
لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن كثير	البداية والنهاية ج ١٣
لابرغرانى	البيان المغرب
د محمد خلف الله	الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة
لعلى بن أنجب بن الساعى	الجامع المختصر ج ٩
محمد سيد كيلانى	الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى
عمر الدسوقى وآخرين	الحماسة
د أحمد أحمد بدوى	الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية
د محمد كامل حسين	الحياة الأدبية والفكرية بمصر
د أحمد أحمد بدوى	الحياة الفكرية فى عصر الحروب الصليبية
عماد الدين الأصفهانى	الخريدة ج ١
للاميرزى	الخطط
لابن حجر (أحمد بن على الكنانى)	الدرر الكامنة
ابن بسام	الدولة الخوارزمية
ابن بسام	الذخيرة
لأبى شامه (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى)	الروضتين فى أخبار الدولتين

السلوك

للمقريزي

الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي

حافظ حمدي

الشرق الأوسط في موكب الحضارة

محمد منصور أحمد

الصناعتين

لأبي هلال العسكري

الغاية في اختصار النهاية

عز الدين بن عبد السلام

الفرق في أسماء الفرق

للبغدادي

الفرق بين الايمان والاسلام

عز الدين بن عبد السلام

الكامل ج ٤ ، ج ٩

لابن الأثير

المجالس المؤيدة ج ١

لأبي الفداء

المختصر في أخبار البشر

لأبي الفداء

المعز لدين الله الفاطمي

ابراهيم وطه شرف

المغرب

ابن سعيد المغربي

الملل والنحل

الشهرستاني

المواعظ والاعتبار

أحمد بن علي المقريزي

النجوم الزاهرة

أبن تقي بردي

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق

د محمد جمال الدين سرور

النكت العصرية

لعمارة اليمنى

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

ليوسف ابن شداد

لابن أبى الاصبع : تحقيق حفنى
شرف

بديع القرآن

لابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

القاضى النعمان

تأويل دعائم الاسلام

د حسن ابراهيم حسن

تاريخ الدولة الفاطمية

د أحمد شلبى

تاريخ التربية الاسلامية

حنا الفاخورى - خليل الجبر

تاريخ الفلسفة العربية

بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية

د حسن ابراهيم

تاريخ الاسلام السياسى

ترجمة : عادل زعيتر

تاريخ العرب العام

ابن حجة الحموى

ثمرات الأوراق

حالة مصر الاقتصادية فى عهد

د راشد البراوى

الفاطمين

للسيوطى

حسن المحاضرة

محمد كرد على

خطط الشام ودمشق

للحموى

خزانة الأدب

لابن سناء : تحقيق جودة

الركابى

دار الطراز

دراسات فى علم النفس الأدبى
دراسات فى الشعر فى عصر

الأيوبيين

ديوان المتنبى

ديوان ابن عنين

ديوان ابن النبيه

ديوان ابن التعاويذى

ذيل الروضتين

ذيل تاريخ دمشق

رحلة ابن جبير

شذرات الذهب

شرح لامية العجم

صبح الأعشى

الطبقات الكبرى

ظهر الاسلام

علم النفس

فوات الوفيات

فصوص الفصول (خط)

فى الأدب الحديث

فى الأدب المقارن

حامد عبد القادر

د محمد كامل حسين

مطبعة هندية بالموسكى

نشر خليل مردم

لأبى شامة

لابن القلنسى

لابن جبير

لابن العماد الحنبلى

للصفدى

القلقشندى

الشعرانى

د أحمد أمين

د عبد العزيز القوصى

لابن شاعر

لابن سناء الملك

عمر الدسوقي

د عبد الرازق حميده

قوانين الدولة	لابن مماتى
قوانين الدواوين	لابن مماتى
مرآة الزمان ج ٨	لأبى المظفر يوسف بن قزوغلى المعروف بسبط بن الجوزيه
مصر فى عصر الأيوبيين	د السيد الباز العرينى
مصر فى العصور الوسطى	د حسن ابراهيم حسن
معجم السلفى	السلفى
مفرج الكروب	لابن واصل
فصوص الحكم	تحقيق : أبو العلا عفيفى
نقد الشعر :	تحقيق : محمد عيسى منون
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة	للشيرازى
وفيات الأعيان	لابن خلكان : تحقيق محمد محيى الدين

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
عصر ابن سناء الملك	٧
ابن سناء الملك	٣٧
موقف ابن سناء الملك من الحروب الصليبية	٩١
الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين وموقف	
ابن سناء منها	١٢١
شعر ابن سناء الملك	١٤٥
منزلة ابن سناء في موكب الأدب	١٦١
المراجع	٢٠٧

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
عصر ابن سناء الملك	٧
ابن سناء الملك	٣٧
موقف ابن سناء الملك من الحروب الصليبية	٩١
الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين وموقف	
ابن سناء منها	١٢١
شعر ابن سناء الملك	١٤٥
منزلة ابن سناء في موكب الأدب	١٦١
المراجع	٢٠٧



مرکز تحقیقات تکنولوژی علوم رایانه